

التاريخ عبرة الماضي

وإضاءة المستقبل

الفقيه المجدِّد المرجع

السيّد محمد حسين فضل الله (رض)

إعداد

السيّد محمّد طاهر الحسيني

إصدار

المركز الإسلامي الثقافي - مجمع الإمامين الحسنين (ع)

لبنان - حارة حريك

التاريخ عبرة الماضي وإضاءة المستقبل

كلمات الفقيه المجدِّد المرجع
السيّد محمد حسين فضل الله (رض)


بسم الله الرحمن الرحيم

التاريخ عبرة الماضي وإضاءة المستقبل

كلمات الفقيه المجدِّد المرجع
السيّد محمد حسين فضل الله (رض)

إصدار المركز الإسلامي الثقافي

لبنان - حارة حريك مجمع الإمامين الحسنين(ع)

هاتف: ٠١/٥٥٧٠٠٠ - ٠١/٥٤٤٤٠٢

خليوي: ٠٣/٥٦٥٠٧٤

البريد الإلكتروني

info@tawasolonline.net
info@fadlullahlibrary.com

المواقع الإلكترونية - المركز الإسلامي الثقافي

www.tawasolonline.net
www.fadlullahlibrary.com
youtube/tawasolonline

facebook:
مكتبة العلّامة المرجع السيّد فضل الله العامة
تواصل أون لاين

المقدّمة

«لا يُدرس التاريخ من حيث كونه مادّة للتسلية أو للاستهلاك أو الاستغراق في الماضي، لأنّ التاريخ يذهب بموت أصحابه كأحداثٍ زمانيّةٍ أومكانيّةٍ أوحالاتٍ إنسانيّة، ويبقى منه الفكرة والدروس».

هذا ما كان يؤكّد عليه المجدِّد السيّد فضل الله (رض) في كتاباته و في طروحاته عندما كان يتناول مسألة التاريخ كقضيّة إنسانيّة نستلهم تجاربها الناجحة لنكون على بيّنة ونحن نخوض تجاربنا العمليّة، وندرس خطواتها المتعثّرة لنجنّب أنفسنا الوقوع في الخطوات المماثلة...

وقد كان القرآن الكريم هو الحاكم على نظرة السيّد (رض) التاريخيّة فيما كان يعالجه ويحلّله ويتّخذ المواقف من خلاله، وقد استند إلى نهج البلاغة كوثيقة إسلاميّةٍ خَبُرَ صاحبُها وهو الإمام علي عليه السلام أحداثَ الماضي بحُلوها و مرّها، ورسم للأجيال طُرُقَ الخروج ممّا يمكن أن يترك هذا الماضي تأثيراته السلبيّة على حركة هذه الأجيال....

وقد أجاد الباحث الإسلامي سماحة الدكتور السيّد محمد طاهر الحسيني وهو أحد علماء العراق في إبراز أفكار معيّنة حول التاريخ – فكرةً ومنهجاً وتعاطياً – أدلى بها سماحة السيّد فضل الله (رض) في لقاءاتٍ ومناسباتٍ عديدة ومتفرّقة...

وقد أبرز السيّد الحسيني في هذا الكتاب جملةً من الموضوعات التي عالجها السيّد (رض) في أبحاثه،وهي: المنهج الإسلامي لدراسة التاريخ، وأمير المؤمنين عليّ عليه السلام يستنطق التاريخ، والسيرة النبويّة: إشكالية النّص ومنهج الدراسة، وأخيراً، مع المؤرخين في قصّة المبعث....

ونحن في المركز الإسلاميّ الثقافيّ إذ يسرّنا أن ننشر هذه الدراسة، فإنّنا نأمل أن تكون عربون وفاءٍ وتقديرٍ لروح السيّد الشريفة، وحافزاً للكتّاب والباحثين لأن يُلقوا الضوء على فكره لِما فيه من تجدّد ومعاصرة وإنسانيّة، تحتاجها البشريّة في كلّ مراحل تاريخها....

والله الموفّق والمسدّد

مدير المركز الإسلامي الثقافي
شفيق محمد الموسوي
ت٢(نوفمبر)٢٠١١م ـ ذو الحجّة ١٤٣٢ هـ

أوّلاً

المنهج الإسلاميّ لدراسة التاريخ

للتّاريخ في حياة كلِّ أمّة، تريد أن تتقدّم وتنطلق في الرّكب الحضاريّ الصّاعد، دورٌ حيويٌّ في نموِّها وتطوّرها، كونه يجنّبها كثيراً من المزالق والمخاطر والأخطاء، بما يقدّمه لها من تجاربها الماضية في مراحل نموّها الأولى، وما تحمله - تلك التجارب - مِنْ دروسٍ عمليّةٍ كثيرة، تستطيع بها أن تضع يديها - بوعيٍ - على مَواطن الضّعف ومَواطن القوّة في شخصيّتها التي عاشتها في تلك الأدوار. وهناك يكون الطّريق أكثر إشراقاً، وأرحب آفاقاً ممّا لو انطلقت فيه على غير هدى التاريخ.

أما إذا انعكست القضيّة، فحاولت أن تحتقر تاريخها، وترفضه ولا تنظر إليه إلاّ كما تنظر إلى الآثار البالية، وانطلقت، بروح انفعاليّةٍ حماسيّة تحاول التمرّد عليه والتحرّر منه، والتحوّل إلى حاضرها، لتجعل منه مبدأ نموّها ومُنطلق حياتها، فإنّها - لا شكّ - ستتعرّى وتفقد شخصيّتها الأصيلة، لفقدانها الركيزة التي ارتكزت عليها حياتُها، والمنطلق الذي انطلقت منه. وبذلك فهي لا تملك - حينئذٍ - إلاّ التذبذب والاتّكاء على تجارب الآخرين، وتناول فُتات موائدهم.

ولا يجهل أحدٌ بعد هذا ما في ذلك من ضياعٍ وانهيارٍ لكيانها وشخصيّتها الأصليّة.

على ضوء هذه الفكرة، نحاولُ الانطلاقَ إلى تاريخنا، فندرسه من خلال وجودنا الإسلاميّ، كأمّةٍ إسلاميّةٍ واعيةٍ أنشأت حضارةً عظيمةً تُعتبَر أمّ الحضارات الحديثة.

إنّنا نحاول الانطلاق إلى هذا التاريخ، لنقرأه على هدي من وعي وعمقٍ ومعرفة في هذه المرحلة التي نحاول فيها العودة إلى الشّوط من جديدٍ - بعد أن غِبنا عنه مدّةً طويلة - لنحمل مشعل الكرامة والعدالة الإنسانية في رسالة السّماء إلى الأرض.

وليست تلك المحاولة التي ندعو إليها مجرّد ترفٍ ذهنيٍّ، ودراسةٍ مجرّدةٍ، وإنّما هي ضرورةٌ حتميّةٌ، وواجبٌ حيويّ لمرحلتنا الحاضرة، بل نستطيع القول إنّه من أبرز الواجبات المُلقاة على عاتق المسؤولين عن قضيّة الإسلام، بالنظر إلى أنّه سِجِلٌّ للمعركة التي خاضها الإسلام ضدّ خصومه وأعدائه، وقد عَلِقَ به، ما علق بكثير من مفاهيم الإسلام، من شوائب وألوان دخيلة بسبب ما حلَّ بالمسلمين من ارتباكٍ واضطرابٍ.

ولذلك فقد وصل إلينا وهو يجرّ خطواته في وهنٍ وضعفٍ، حاملاً أثقال الفترة المظلمة، والعهود السّود.

وهذا ما ساعد كثيراً من متفلسفي التاريخ، على تلوينه بالألوان الكثيرة المختلفة،حسب اختلاف لون التفكير الذي يعيشه أولئك المفكّرون، فأصبحنا نقرأ الأسلوب الماديّ للتاريخ الذي يحاول أن يفلسف تاريخنا

على أساسٍ من الاقتصاد فحسب، كما بدأنا نسمع عن كثيرٍ من الحركات والدعوات الاشتراكية في تاريخنا، وعن دور الصّحابيّ الجليل أبي ذرّ الغفاري فيها، وعن ثورة صاحب الزّنج التقدّميّة، وغير ذلك من الألوان التي انتشرت في البحوث التاريخيّة التي تتناول تاريخنا بالدرس، بأسلوبٍ بعيدٍ عن الجوّ الإسلاميّ وواقعه.

وهذا ما يجعلنا نتساءل عمَّا يجب علينا عمله إزاء هذا الموقع الذي يعيشه تاريخنا في عصرنا الحاضر، لنستطيع أن نقدّمه إلى الجيل المسلم الواعي في إطاره الإسلاميّ الخالص، بعيداً عن المفاهيم الغريبة عنه، ليعيش جيلنا الصاعد في جوٍّ إسلاميّ نقيّ، كسبيل من سُبل المحافظة على شخصيّتنا الإسلاميّة المستقلّة.

ملاحظات أوّليّة

١ ـ ويبدو لنا أنّ علينا ـ قبل كلّ شيء ـ أن نتخلّى عن الهالة القدسيّة ـ باستثناء ما ثبت من سيرة الرّسول ﷺ والمعصومين عليهم السلام ـ التي نحاول أن نحيط بها هذا التاريخ بكلّ ما فيه من انحرافاتٍ وأخطاءٍ، لأنّنا لن نحصل على فائدة من دراستنا له بدون ذلك، بل القضية تكون عكسية، لأنّ هذا الأسلوب يؤدّي إلى تقديس الأخطاء، وفي هذا ما فيه من الانحراف عن الغاية التي نسعى إليها، والهدف الذي نهدف إليه.

إنَّ تاريخنا ـ ككلِّ تاريخ ـ كان حصيلة أدوارٍ مختلفة من حياة الأمّة بين ارتفاع وانخفاض، فهو الصورة التي تنعكس عليها الحياة بما فيها من ارتباكات، فإذا أردنا أن نفهمه على أساسٍ واقعيٍّ، فيجب علينا تعريته عن

كلّ لون من ألوان الخيال والدعاية والزّهو، وملاحظته كمادّةٍ خام لدراسة عمليّة واقعيّة عميقة.

٢ ـ وشيءٌ آخر يلزمنا ملاحظته عند دراستنا لهذا التاريخ، هو أنّ كثيراً من القضايا والملابسات، التي حدثت في الصدر الأوّل في الإسلام والانقسامات التي ابتُلي بها المسلمون، أثّرت على سير هذا التاريخ في عصر الرسالة، لأنّ تلك القضايا خلقت عندنا كثيراً من المؤرّخين والمرتزقة، الذين كانوا يعيشون على موائد الملوك، ليخلقوا لهم المآثر والفضائل والأحاديث، ويصوّروها بصورة جذّابة تلفت الأنظار في أيِّ موضوع شاءوا وأرادوا، حسب الحاجة السياسية والشخصية.

ولذلك، فلن نستغرب إذا قرأنا كثيراً من الوقائع التاريخيّة في صورتَين متناقضتَين، تعكسان الانقسامات الموجودة بين المسلمين، وتُبرِز كلّ منهما الواقعة التاريخيّة على ضوءٍ من اتّجاهاتها وغاياتها، تماماً كما يحدث في عصرنا الحاضر عندما تتضارب الصّحف السياسيّة في تصوير بعض القضايا التي نعيشها بأنفسنا نتيجة تضارب الرأي أو الاتّجاه الذي تمثّله هذه الصّحيفة أو تلك.

إنّ على الباحث الإسلاميّ أن يراعي هذا الواقع الذي عاش فيه التاريخ الإسلاميّ، ليسير في بحثه بهدوء وحذر ويقظة متناهية، لئلاّ يقع في الخطأ من حيث لا يعلم، وينحرف عن الدّرب من حيث لا يريد.

٣ ـ وناحية ثالثة يلزمنا الانتباه إليها وتأكيد شجبها، لأنّها تمسّ جوهر الإسلام في الصّميم، فقد دأب كثير من الباحثين، ولا سيّما المستشرقين منهم، على اعتبار كثيرٍ من التصرّفات ـ التي تقوم

بها الجماعات التي تُدين بالإسلام – ممثّلة لوجهة النظر الإسلامية، مهما كان لون تلك التصرّفات ومهما كان نوعها. وهذا خطأ، فإنّ الجماعات الإسلامية والمسؤولين المسلمين – الذين عاشوا في التاريخ الإسلاميّ – ليسوا إلاّ أُناساً كبقية الناس، لهم أخلاقهم الخاصّة، ولهم طبائعهم وأذواقهم المعيّنة، ولهم أخطاؤهم البشرية كبقيّة البشر، وليست تصرّفاتهم إلا كتصرّفات بقية إخوانهم من بني الإنسان، وليس لها علاقة بالإسلام إلا بمقدار قربها من مبادىء الإسلام ومفاهيمه. ولهذا فإنّنا لا نستطيع اعتبار أيّ تصرّفٍ من تصرّفات المسلمين – باستثناء المعصومين عليهم السلام – مرتبطاً بالإسلام، إلا بعد مقارنته بالمفاهيم والمبادىء الإسلاميّة، لنعلم مدى موافقته لها.

إنَّ مبادىء الإسلام ومفاهيمه هي المقياس الصحيح الذي نقيس به تصرّفات المسلمين، لا العكس..

وهذه هي بعض النقاط التي حاولنا أن نعرضها – بصورةٍ إجماليّةٍ – في سبيل الوصول إلى أفضل الطُّرق لدراسة تاريخنا الإسلاميّ بروحٍ علميةٍ عميقة، على ضوء من هدى الإسلام وأسلوبه.

البداية المطلوبة لدراسة التاريخ الإسلاميّ

علينا أن نقرأ تاريخنا من جديدٍ قراءةً واعيةً، تحاول أن تدرسه وتفلسفه وتتعرّف على جذوره الأصليّة، ومعطياته الخصبة.

هذه هي القضيّة التي تواجهنا في طريقنا نحو العمل في بناء الحاضر الإسلاميّ، وتلحّ علينا بقوّة وإصرار لأنّها تتّصل بالمرحلة الأوّلية من مراحل

العمل والبناء، وهي مرحلة الإعداد والتكوين؛ إعداد الخطط التي يسير عليها العمل، وتكوين الأُسس والمبادىء العامّة التي يرتكز عليها البناء.

أما كيف تمثّل هذه القضيّةُ مرحلةَ البداية للعمل، وكيف تساعد على إعداد الخطط وتكوين الأُسس، فهذا ما نتعرّفه، إذا وعينا طبيعة المعرفة التاريخيّة التي تقدّمها لنا دراسة التاريخ، وعلاقتها بالواقع الحياتيّ الذي نعايشه.

وفي سبيل الوصول إلى هذه النتيجة، علينا أن نفهم طبيعة المشكلات الحاضرة التي يتخبّط فيها الواقع الإسلاميّ، انطلاقاً من المشاكل العقيدية التي تتمثّل في اختلاف المذاهب والمدارس الفكرية والإسلامية، في تفاصيل العقيدة وفروعها، وفي نوعية الطرق التي تصلنا بها، وتوصلنا إليها.

إنَّ المشاكل الاجتماعيّة والاقتصاديّة والسياسيّة، تتمثّل في التمزّق الداخليّ والخارجيّ الذي يعيشه المسلمون في ظلٍّ واقعهم العلميّ المنهار المتمثّل في تخلّفهم الحضاريّ عن الركب العلميّ، الأمر الذي جعلهم في عزلةٍ تامّة عن الإسهام في عمليّة صنع التاريخ الحاضر.

ولن نستطيع التعرّف على طبيعة هذه المشاكل، وعلى الحلول العلميّة التي نقدّمها أمامنا لمعالجتها، وبالتالي، لن نصل إلى نتيجةٍ ذات جدوى، إذا حاولنا الوقوف أمام المظاهر السطحيّة البارزة، من دون أن ننفذ إلى أبعد منها، لأنّ ذلك لن يهيّىء لنا الوقوف أمام واقع المشكلة، وبالتالي لن يستطيع أن يخطو بنا خطوةً واحدةً نحو الحلّ الجذريّ الصحيح.

لذلك فلا بدّ لنا من النفاذ إلى الأعماق، لنتلمّس بأيدينا جذورها

وأسبابها البعيدة والقريبة التي تمتدّ إليها هذه المشكلة أو تلك، لأنّ لكلّ مشكلة، وكلّ قضيةٍ، مؤثّراتها وعللها، وجذورها الأصلية في حياة الأجيال السابقة، الأمر الذي يجعلنا ـ ونحن في سبيل البحث ـ نضع علامات استفهامٍ عميقةٍ أمام كلِّ مرحلةٍ سابقةٍ، وحول كلّ حركة من الحركات الثوريّة والإصلاحيّة التي عاشتها الأمّة الإسلاميّة في الماضي، تتّصل بطبيعة فكرها وتوجّهاتها ،من حيث هي إسلاميّة أو غير إسلاميّة، عن الجوّ الذي نشأت فيه ونَمَت في أرضه، من حيث هو دينيّ ينبع من واقع العقيدة الدينيّة، أو دنيويّ ينطلق من المنافع والأطماع الذاتيّة العامّة والخاصّة، عن المؤثّرات الداخليّة والخارجيّة التي شاركت في نموّها، وتطويرها، من حيث ارتباطها بالواقع الداخليّ والخارجيّ لحياة المسلمين وعدمه، وعن نوعيّة النتائج التي حصلت من هذه الحركة أو تلك، من حيث اتّصالها بالمفاهيم والقِيَم الإسلاميّة وابتعادها عنها، وأخيراً عن مَواطن النجاح، ومَواطن الإخفاق من حيث تمثّل عناصر القوّة التي دفعت إلى النجاح، ومعرفة عناصر الضّعف التي أدّت إلى الفشل والإخفاق، كسبيلٍ من سُبُل استفادتنا منها، ومدى إمكانيّة هذه الفائدة وعلاقتها بالمشاكل الآنيّة التي نعيشها، وارتباطها من قريب أو بعيد.

تلك هي علامات الاستفهام التي تواجهنا، ونحن ندرس التاريخ، في طريق التعرّف على مشاكلنا الحاضرة.

وتلك هي الأسئلة، أو بعض الأسئلة التي يطالعنا في كثيرٍ من الأجوبة عليها، الوجه الحقيقيّ لطبيعة مشاكلنا الحاضرة.

وهذا هو أحد الأسباب التي تضطّرنا إلى الوقوف وجهاً لوجه أمام

التاريخ، لندرسه ونتعمّق في معطياته وآثاره، لأنّه لم يعد – من خلال هذه النظرة – مجرّد تسجيل حرفي لقضية من قضايا الماضي، بل أصبح أداةً فاعلةً تُسهم في عملية صنع الحاضر، وتؤثّر فيه، بطبيعة ارتباطه بها وارتباطها به، تماماً كارتباط الشجرة بجذورها وعروقها الضاربة في أعماق الأرض.

اتّجاهاتٌ لفهم التّاريخ

وثمّة ناحيةٌ أخرى تجعلنا على صلة وثيقة بالمعرفة التاريخيّة في مرحلتنا الفعليّة، وتحتّم علينا إعادة النظر في تاريخنا من جديد، في سبيل التعرّف على القاعدة التي ينطلق منها، وعلى العوامل التي شاركت في وجوده ومدى علاقتها بهذا الوجود، وعلى علاقة هذا التاريخ بالإسلام، وعلاقة الإسلام به، وما الذي قدّمه الإسلام لهذا التاريخ، وماذا كان دور الإسلام في حركته الصاعدة، أكان تأثيره فيه كدينٍ قدَّم للحياة مفاهيم جديدةً شاملة للكون والحياة والإنسان فساعدها على أن تخطو هذه الخطوات الجبّارة، أم أنّ تأثيره فيه، كحركة ساعدت على تغيير الواقع الاقتصاديّ للمجتمع الذي عاشت فيه، أو بالأحرى نشأت على أساس الواقع الاقتصاديّ لذلك المجتمع، ولذا فهي جزء من الحركة التاريخيّة الحتميّة، التي تخضع للعامل الاقتصادي؟

أم ليس الأمر في هذا وذاك، وإنّما القضيّة، أنّ الإسلام كان وليد الأمّة التي عاش في أرضها، وربيب البيئة التي نشأ فيها وتأثّر بها وأثَّر فيها، ولذا فإنّه يحمل رسالة هذه الأمّة وعبقريّة هذه البيئة، ويمثِّل آمالها وآلامها أصدق تمثيل، وبهذا كان دور الإسلام في هذا التاريخ – من خلال هذه

النظرة ـ هو دور الأمّة التي كان الإسلام أصدق تعبيرٍ عنها، وأصفى مرآةٍ لروحيّتها وتطلّعها وظمئها إلى السموّ والإبداع؟

علينا أن نتعرّف على كلّ هذا، لنتعرّف على موقفنا من كلّ ذلك، فقد تعدّدت الاتّجاهات النظريّة في دراسةٍ هذا التاريخ، واختلفت التيّارات الفكريّة في ذلك.

فقد حاول أتباع المادّية التاريخيّة وضع قاعدة عامّة للتاريخ ضمن الفلسفة المادّية الشاملة في تعليل الكون والإنسان والتاريخ، والتي تُخضِع كلّ التطورات التاريخيّة والحياتيّة للعامل الاقتصاديّ الذي يتمثّل في تطوّر وسائل الإنتاج، والذي يعيّن طبيعة العلاقات الاقتصاديّة في كلّ مرحلة من المراحل، التي تعيّن بدورها كلّ الأوضاع الفكريّة والروحيّة والاجتماعيّة التي يعيشها المجتمع البشريّ بشكلٍ عامٍّ. وهكذا يصبح التاريخ خاضعاً لحتميّة هذا التطور ـ الذي يزعمونه ـ من دون أن يستطيع الفكاك عنه.

أمّا طبيعةُ ارتباط هذه النظرة بمعرفتنا التاريخيّة، فتتمثّل في أنّها تحاول إخضاع تاريخنا لهذا المنطق وفرض تلك المراحل الحتميّة على هذا التاريخ، كما شاهدناه في بعض الدراسات التي حاول فيها بعض الباحثين الذين يتبنّون هذه النظرة، أن يفسّر التطورات الحياتيّة التي حدثت قبل الإسلام وبعده بالتفسير الذي ينسجم وهذه النظرية.

وهناك اتّجاه آخر يعيش في نطاق التاريخ الإسلامي، فيحاول أن يجعل منه مرحلة من مراحل تاريخ أمّةٍ معيّنة أو شعبٍ معيّن، حتّى كأنّ في انطلاق هذا التاريخ في حياتها ما يبرّر اعتباره تراثاً قومياً ينبع من طبيعة العوامل والمؤثّرات القوميّة. وامتدّ هذا الاتّجاه في هذا المجال حتّى حاول

أن يجعل من الإسلام مجداً من أمجاده القوميّة الخاصّة، فقد كان وليد الأمّة العربيّة، لا رسالة إلهيّة تمتدّ من السماء، لتحتضن البشريّة جمعاء في آلامها وآمالها..

وقد أصبح لكلٍّ من هذين الاتّجاهين دراساتهما المعيّنة، ومناهجهما المحدّدة، حتى عاد القارىء العصريّ يلتقي بكلّ منهما في أكثر من كتابٍ وفي أكثر من محاضرة.

أما الاتّجاه الثالث الذي يحاول أن يفسّر هذا التاريخ من خلال دور الإسلام فيه ـ كدين ـ فلا تجد له خطّاً معيّناً، ولا منهجاً محدّداً، وإنّما هي كلمات وآراء متناثرة تلتقطها من هنا وهناك، ممّا يكتبه بعض الكتّاب المسلمين، من حيث يقصدون ومن حيث لا يقصدون. إنّها كلمات عابرة وآراء سريعة، ولذا فإنّها لن تترك في نفس القارئ أيّ أثر لو التَفَتَ إليها، ولذا فلا تبدّل في ذهنيّته أيّ شيء.

وقد يبدو غريباً أن ندرس التاريخ من خلال تأثير الإسلام فيه كدينٍ، أو أن نعتبر ذلك اتّجاهاً آخر في دراسته.

ولكن هذه الغرابة ترجع إلى غموض هذا المنهج الذي ندعو إليه ونحاول التعرّف إلى ملامحه وآثاره، ولذلك فإنّها ستزول ـ حتماً ـ عندما نوفّق إلى رسم الصّورة المضيئة لما نحاوله.

صورة مشوَّشة

حتى الآن، لا نزال نقرأ التاريخ الإسلاميّ، في صورة حوادث معيّنة متعاقبة، تعيش في نطاق معين، هو الشعوب التي تدين بالإسلام. فنقرأ الحياة الاجتماعيّة والسياسيّة والثقافيّة، التي تسود تلك المجتمعات، كما

نقرأ العلاقات والارتباطات، التي حدثت بينها وبين المجتمعات الأخرى، وطبيعة التفاعلات والتأثيرات التي نشأت من خلال هذه العلاقات والارتباطات.

كلُّ ذلك نقرأه ـ في ما لدينا من كتابة التاريخ ـ ونقرأ أشياء كثيرة غير ذلك. ولكن ما هي الصورة التي نخرج بها من كلّ ذلك؟

أَحسبُ أنّ الجواب على هذا التساؤل، لن يكون إلا بمعرفة حياة أناس نرتبط معهم برباط الدين، تماماً كما يعرف الإنسان حياة أقربائه وعشيرته، ونعني بذلك أنّ هذه المعرفة التي نحصل عليها ترتبط بذوات هؤلاء الناس، وبما تحمله من رغباتٍ ورواسب وتأثّرات، ولذا فلن يغيّر إطلاق أيّة صفةٍ عليهم طبيعةَ هذه المعرفة، لأنّ هذه الصّفة لا تمثّل ـ في هذا المجال ـ إلا مهمّة الإشارة إلى هؤلاء الناس، من دون أن يكون لها أيّ أثر في حياتهم ـ من خلال هذا التاريخ ـ وإذاً، فلا فرق بين أن نُطلق عليهم صفة المسلمين أو غيرها من الصفات، لأنّ الصّفة غير دخيلة في حركة هذا التاريخ الذي نقرأه.

تلك هي الصورة التي نخرج بها من قراءتنا لما كُتِب من هذا التاريخ، صورة الناس الذين يُدينون بالإسلام.

أمّا صورة الناس المسلمين الذين ترتبط حياتهم بالإسلام وتتأثّر به، فهذا لا نلمحه في هذا التاريخ، ولذا فقد عادت المعرفة التاريخيّة لدى القارىء المسلم غير ذات أَثَر، إلا من خلال إثارة الزّهو الذاتيّ، تثيره فيه قراءة هذا التاريخ وما فيه من أمجاد، نتيجة ارتباطه بأشخاص هذا التاريخ برابطة الدين، تماماً كما

يحسّ الإنسان بالزّهو عندما تُعرض أمامه أمجاد آبائه وأجداده، ولا شيء آخر غير الزّهو.

مهمّة الباحث المسلم

أمّا ما نحاوله، فهو أن يرتبط هذا التاريخ بالإسلام. فقد عاد من الأمور المسلَّمة الواضحة أنّ الإسلام قد غيّر حياة الشعوب التي دانت به وانتسبت إليه، وحاول أن يطبعها بطابعه، ويربط حركتها وأفكارها وعلاقاتها العامّة والخاصّة بمفاهيمه العامّة التي جاء بها لتنظيم الحياة.

ولكن ما هو الحدّ الذي وصل إليه هذا الجهد، وما هو مقدار نجاح هذه المحاولة التي حاولها الإسلام؟

إنّنا لا نستطيع - بطبيعة الحال - أن ندّعي استيعاب هذا التغيير لجميع نواحي الحياة، ولا يمكن القول إنّ تلك الشعوب مثّلت صورةً صادقةً عن الإسلام وتجسيداً حيّاً لمفاهيمه.

إنّنا لا نستطيع هذه الدّعوى ولا هذا الزّعم، لأنّنا واجدون في هذا التاريخ ما يضع أيدينا على كثير من الانحرافات عن مفاهيم الإسلام وخطوطه العامّة، وهنا تبدأ مهمّة البحث، وتتجلّى طبيعة المنهج الذي نحاوله في دراستنا لهذا التاريخ.

فقد وَضُح لنا من خلال العرض الموجز الذي قدّمناه، أنّ هناك حقيقتَين عاشهما هذا التاريخ، من خلال دخول الإسلام في حياة الشعوب.

الأولى: إنّ الإسلام قد أحدث تغييراً كبيراً في لون الحياة ومفاهيمها لدى الشعوب التي دخلها.

الثانية: إنّ هذا التغيير لم يكن كليّاً بالقدر الذي يجنّب تلك الشعوب الانحراف عن مبادىء الإسلام وتعاليمه، ويجعل من حياتها تجسيداً حيّاً للإسلام.

وهنا تبدأ مهمّة البحث الذي نحاوله. فنبدأ بدراسةٍ نوعيّةٍ هذا التغيير الذي حدث، ونوعيّة الظروف التي هيّأت له، وطبيعة الأساليب التي استُخدِمت في سبيل الوصول إليه.

ثمّ نحاول التعرّف على تلك الانحرافات التي حدثت، والأخطاء التي ارتُكبت، ودوافعها ونتائجها، ثمّ نسير في التاريخ في حوادثه وحركاته، فنلاحظ مدى علاقاتها وارتباطها بالمفاهيم الإسلاميّة، وعلاقة تلك المفاهيم بها، وكيف تمثّلت الناحية التطبيقيّة للإسلام في هذا التاريخ، ومدى التأثير الذي أحدثه هذا الاختلاف أو الانسجام في تمثّلها الحياتيّ لدى النّاس، لنصل بعد ذلك إلى معرفة النكسات التي تعرّض لها التاريخ وعلاقاتها بالإسلام ومفاهيمه، من حيث بُعدُها عنه وقُربُها إليه وعياً وتجربةً. وبكلمة موجزة، أن نحاول دراسة التاريخ الإسلاميّ من حيث هو تجربةٌ عمليّةٌ للإسلام، وامتحانٌ لقدرة مفاهيمه وتعاليمه، على أن تعيش في حياة النّاس وتؤثّر فيهم، وملاحظة عوامل الضّعف في هذه التجربة من حيث نشوئها داخل هذه المفاهيم - كما يدّعي الأعداء - أو عن الظّروف التي أحاطت بالتجربة الزمنيّة ومنها الاجتماعية، أو عن الوعي القلِق لواقع هذه المفاهيم وحقيقتها الأصيلة.

تلك هي الصّورة الاجتماعيّة لما نريده من هذا الاتّجاه الذي نعتقد أنّه سيساعدنا إلى حدٍّ بعيدٍ على وعي موقف الدّين من هذه المرحلة، بمقارنته

مع المراحل السّابقة، التي قد نجد فيها الكثير من التجارب التي تعيننا على فهم هذه المرحلة.

وإلى جانب ذلك، فإنَّ هذا المنهج، يجعلنا نحسّ ـ بعمقٍ ـ أنّنا جزءٌ من تاريخ هذا الدّين، لأنّ حياتنا ستكون جزءاً من الحياة الواسعة التي عاشت التجربة العملية للدّين.

تجنّب الانحرافات والأخطاء

ونحبّ أن نشير ـ ونحن في سبيل التعرّف على ملامح هذا المنهج ـ إلى قضيّةٍ قد تتبادر إلى ذهن الكثيرين عند قراءة هذا اللّون من الكلام، وهي أنّنا نحاول تعمُّد إغفال الدور الذي قامت به الأمّة ـ التي نشأ هذا التاريخ على يَدَيْها ـ في صنع هذا التاريخ وبنائه، وتجاهل القوى والإمكانات الذاتيّة التي لدى هذه الأمّة في عمليّة البناء والإبداع.

نحبّ أن نشير إلى خطأ هؤلاء في ما يزعمون وفي ما يفهمون، فلسنا في محاولة إلقاء نظرةٍ انفعاليّةٍ حماسيّةٍ تتأثّر بالعواطف والنوازع الذاتيّة، وإنّما نحن في محاولة بحثٍ ومنهجٍ يعتمد على الموضوعيّة وعلى التجرّد.

إنّ هذا المنهج الذي نحاوله يهدف إلى أن يجعل من وصف التاريخ بالإسلاميّ وصفاً حقيقيّاً، لا مجرّد إشارةٍ لمرحلة من مراحل الأمّة العربيّة ـ كما يحاول بعض الباحثين ـ ولا يمنعنا في الوقت ذاته من استكشاف طبيعة الدور الذي قامت به هذه الأمّة في التاريخ، والحكم عليه من خلال قربه للمفاهيم الإسلاميّة وبُعدِه عنها.

وبكلمةٍ موجزةٍ، إنّ محاولتنا هذه، تستهدف إثارة وعي القارىء للتّاريخ

ـ وهو يقرأ ـ بحركة الدين في هذا التاريخ، بحركة مفاهيمه، بحيويّة روحه، وبأصالة حلوله.

ومن الطبيعيّ لهذا الوعي أن يلتقي بالأمّة التي كانت أوّل مجال عمليّ لاختبار قدرة الدّين على التأثير، وأوّل راشدٍ عاش هذا الدّين في أفقه، وانطلق يتحدّث إلى العالم بلُغَتِه.

ذلك هو هدفنا من هذه المحاولة، وذلك هو غرضنا منها، فلسنا نريد اختراع تاريخ جديد، وإنّما نحاول فهم هذا التاريخ من حيث هو تجربةٌ عمليّةٌ للدّينً، وبالتّالي حِفْظُ هذا التاريخ من الفَهم المزوَّر، والمنهج الخاطىء الذي وقع فيه الكثيرون من القارئين والدارسين له، والابتعاد به عن طبيعة السّرد الحرفيّ، إلى الطريقة التي تجعل منه معنى يتحرّك في داخل حياتك ليحرّك الحياة من حولنا.

علينا أن نحاول ذلك ونبدأ الدرب بسرعة وحذر، لنجنّب جيلنا الإسلاميّ الطالع الانحرافات التاريخيّة، وأخطاء المناهج المتعدّدة التي تدرس هذا التاريخ.

الفهم الخاطئ

وما دمنا في مجال البحث عن الاتّجاه الدّينيّ في دراسة التاريخ ومحاولة تركيزه على أُسس متينة ثابتة، فقد نجد أنّ من الخير لنا، أن نعرض لبعض الأخطاء التي وقع فيها بعضٌ الكتّاب المعاصرين في تفسيرهم للطريقة التي يعلّل بها الاتّجاه الدينيّ حوادثَ التاريخ.

يتحدّث الأستاذ قسطنطين زريق في كتابه: «نحن والتاريخ» ص ٢٩ ـ ٣٠،

عن المميّزات التي تميّز التيار التقليدي ـ في ما يعبِّر ـ فيعتبر أنّ إحدى هذه الميزات هي: «أنّ تعليل نشوء الأحداث وتطوّرها هو، بحسب هذه النظرة، تعليل إلهيّ، فدوافع التاريخ ليست، أو على الأقلّ ليس أهمّها وأبلغها فعلاً، في يد الإنسان، بل تحكمها المشيئة الإلهيّة والقوانين السماويّة. وحياة السعادة الدائمة أو الشقاء الدائم في العالم الآخر. فَمِنَ العبث إذاً أن نحاول تعليل الأحداث الإنسانية بإعادتها إلى الجنس أو المحيط أو أيّ عامل من العوامل الطبيعية أو البشرية الأخرى. إنّ محور التاريخ ليس في هذا العالم، بل في العالم الأعلى».

ثم يتحدّث في صفحة (٣١) عن المنطلق الذي انطلق منه في وصفه لهذا الاتّجاه: «ويلاحظ القارىء أنّنا في وصفنا لهذا المجرى التقليديّ، لم نجد غنىً عن توجيه النظر رأساً إلى المفاهيم الدينية الإسلامية والمسيحية. فهذه المفاهيم هي، عند الذين لا يزالون ضمن هذا المجرى، الدليل الأمين إلى حقائق الحياة الأساسية، وإلى معنى الأحداث المتعاقبة في الزمن، وإلى العلّة الفاعلة في هذه الأحداث».

وهكذا نجد أنّ هذا الوصف ـ في زعمه ـ يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالمفاهيم الإسلامية، لأنّه ينبع منها ويتأثّر بها. وهنا تصبح الدراسة التاريخية لدى أصحاب هذا الاتّجاه عبثاً لا طائل منه، وتكراراً مملاًّ لتفسير واحد، وتعليل مكرَّر لكلِّ حادثةٍ من الحوادث، أو حركةٍ من الحركات. فكلّها جارية على سُنَّة القضاء والقدر ومشيئة الله وإرادته، ولا رادَّ لقضاء الله، ولا مبدّل لإرادته.. وهكذا تلتقي الحوادث التاريخية بهذا التعليل. وهكذا يتمثّل إغفال النظام الطبيعيّ الجاري في هذه الحياة، والسنّة الكونية الحياتية، وإبعاده عن تعليل حوادث الكون وتفسيرها.

تصحيح النظرة

إنّنا لا نُنكر أنَّ هناك مفهوماً دينياً يُسمّى بالقضاء والقدر، ولا نُنكر أيضاً أنّ العقيدة الدينيّة ترتكز على أساس تبعيّة الحياة، بجميع حوادثها وحركاتها، لمشيئة الله وإرادته.

نحن لا نُنكر ذلك، ولا يسعنا مناقشته، كما لا يسعنا الوقوف عند هذا المفهوم في محاولة بحث وتحقيق، لأنّ بحثنا لا يسير في هذا الاتجاه، ولا يقف في هذا الموقف. فلسنا في معرض بحث تاريخيّ يحاول أن يرسم النظرة الدينيّة والتفسير الدينيّ للتاريخ ومدى ارتباطها بالمفاهيم العامة للدين.

فمن المفيد ـ إذاً ـ أن نكشف عن حقيقة هذا الارتباط وواقع هذه العلاقة.

فما الذي يحاوله المفهوم الدينيّ للحياة؟

هل يحاول تجاهل العلاقات الطبيعية بين الحوادث ومؤثّراتها، وإنكار قانون السببيّة والعليّة العامّة، في اعتبار الحياة مرتبطة بالله، فلا صلة للأحداث الإنسانيّة بأيٍّ عامل طبيعي من العوامل الطبيعيّة والبشريّة، ولا علاقة لها بها، وإنّما هي مرتبطة بإرادة الله مباشرة ومنطلِقة منها، فهي السبب الأوّل والأخير لوجودها في الواقع الخارجي؟

هل يحاول المفهوم الديني ذلك، فنستطيع أن نربط ـ على أساس ذلك ـ بينه وبين النتيجة التي خرج بها الأستاذ زريق؟

يبدو لنا أنّ الجواب لن يكون إيجابياً على هذا التساؤل، كما نحسب

أنّ هذا المفهوم الخاطئ الذي عرضنا له، ينطلق من جذور بعيدة تمتدّ من (الفلسفة المادية) التي اعتبرت مسألة الاعتقاد بالله نابعة من حاجة الإنسان إلى إيجاد سبب معقول للحوادث الطبيعية وظواهرها ومبرّر يبرّر وجودها، وبهذا اعتبرت إنكار الدين للتفسيرات الطبيعية التي تحاول ربط الأشياء بمؤثّراتها الكونية أمراً مفروغاً منه، فالظواهر الكونيّة والأحداث البشريّة، كلّها تستند إلى إرادة الله ومشيئته، من دون أن يكون لها أيّ سبب ماديّ معقول.

وهكذا نشأت التّهمة التي اتُّهم بها الدين من وقوفه أمام العلم ومصادمته له، لأنّ العلم يربط بين كلّ حادثة وأسبابها الطبيعية، بينما لا يعترف الدين ـ بحسب مفهومهم ـ بهذه الأسباب، ولا بعلاقتها بالأحداث.

قلنا إنّ الجواب لن يكون إيجابياً على ذلك التساؤل، لأن المسألة الدينيّة لا ترتكز على الاستغناء عن الأسباب الطبيعية، ولا تنكر قانون العلّية العامّة، وإنّما ترتكز على اعتبار الله سبباً أعمق، تنتهي إليه سلسلة العلل والأسباب، فلا يعتبر المادّة هي السبب الأخير، بل يعتقد أنّ هناك سبباً أعلى وأعمق منها هو الله، الذي أودع فيها خواصها وآثارها العامة.

وهكذا نرى أنّ هذا المفهوم لا يستند إلى افتراض تعلّق الإرادة الإلهيّة بالأشياء مباشرةً، فتغيّر وتبدّل ما شاءت تغييره أو أرادت تبديله من دون سببٍ خارجيٍّ، لنخلص منها إلى الفكرة الخاطئة التي خرج بها المادّيون في تفسيرهم لفكرة الدين.

بل نستطيع أن نجزم بأنّ المفهوم الدينيّ للحياة يؤكّد قانون العلّية العامّة الذي يربط بين كل حادث وسببه، وبين كلّ معلول وعلّته، فالحوادث

والأحداث الحياتية - بأجمعها - خاضعة للنظام الكونيّ والسّنة الطبيعية التي أودعها الله في هذا الكون.

ويذهب بعض الباحثين الإسلاميين إلى أبعد من ذلك، فيعتبر أنّ قانون العلّية لم يتخلّف في أيّ حادثة من الحوادث الحياتيّة في ما نسمّيه بالمعجزات أو الخوارق للعادة التي جاء بها الأنبياء كدليل على صحّة نبوّتهم ورسالتهم، فيحاول إرجاعها إلى أسباب طبيعيّة لم نطّلع عليها كما لم نطّلع على تفسير الكثير من الحقائق الكونيّة والظواهر الطبيعية.

ولكي نعطي القارىء صورة جليّة عن الفهم الدينيّ الذي عرضناه، نودّ أن ننقل حديثاً للعلاّمة السيد الطّباطبائي تحت عنوان: «تصديق القرآن لقانون العلّية العامة». فيقول:

«إن القرآن يثبّت للحوادث الطبيعيّة أسباباً ويصدّق قانون العلّية العامّة، كما تثبّته ضرورة العقل وعلّية الأبحاث العلمية والأنظار الاستدلالية، إنّ الإنسان مفطور على أن يعتقد لكلِّ حادثٍ ماديّ علّة موجبة من غير تردّد وارتباك. وكذلك العلوم الطبيعية وسائر الأبحاث العلميّة تعلّل الحوادث والأمور المربوطة بما تجده من أمور أخرى صالحة للتعليل، ولا نعني بالعلّة إلاّ أن يكون هناك أمر واحد أو مجموعة أمور إذا تحقّقت في الطبيعة مثلاً تحقّق عندها أمر آخر نسمّيه المعلول بحكم التجارب، كدلالة التجربة على أنّه كلّما تحقّق احتراق لزم أن يتحقّق هناك قبله علّة موجبة من نار أو حركة أو اصطكاك أو نحو ذلك. ومن هناك كانت الكلّية وعدم التخلّف من أحكام العلّية والمعلولية ولوازمها.

وتصديق هذا المعنى ظاهر من القرآن في ما جرى عليه وتكلّم فيه من

موت وحياة ورزق وحوادث أخرى عُلويّة وسماويّة أو سُفليّة أرضيّة على أظهر وجه، وإن كان يسندها جميعاً إلى الله سبحانه لغرض التوحيد.

فالقرآن يحكم بصحَّة قانون العلّية العامّة، بمعنى أنّ سبباً من الأسباب إذا تحقّق مع ما يلزمه ويكتنف به من شرائط التأثير من غير مانع، لزمه وجود مسبّبه مترتّباً عليه بإذن الله سبحانه، وإذا وجد المسبّب كشف ذلك عن تحقيق سببه لا محالة».

وهكذا نَجِدُ أنَّ بإمكانّنا تعليل الحوادث التاريخية، بإعادتها إلى الجنس أو البيئة أو المحيط أو أيّ عامل من العوامل الطبيعيّة أو البشريّة الأخرى، من دون أن يكون ذلك عبثاً ـ كما يقول زريق ـ نظراً إلى أنّ الحادثة التاريخية ـ كبقيّة الحوادث الجارية في الحياة ـ مرتبطة بجذورها البعيدة وبظروفها الزمنية وبمجتمعها الإنسانيّ، وطبيعة تكوينه وطبيعة نظم الحياة التي يسير عليها، والعقائد التي يعتنقها والرّواسب التي ترسّبت في ذهنيّته من ماضيه القريب والبعيد، من دون فرقٍ في ذلك بين كلّ الحوادث التاريخية، حتّى الحوادث التي رافقت نشوء الإسلام ونموّه، فإنّها لم تجرِ إلا على وفق السّنن العادية للكون، وبذلك اضطُهد واستُشهِد من استُشهِد، وأخفقت الدّعوة في بعض مراحلها ونجحت في البعض الآخر، كلّ ذلك لأنّ الله أراد للحياة، التي خلقها وأودعها نظامه العظيم، أن تجري وفق هذا النظام ولا تتخلّف عنه في كلّ مرحلةٍ من مراحلها وحادثةٍ من حوادثها.

ثانياً

أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام يستنطق التاريخ

دراسة تجارب الأمم

لعليٍّ أمير المؤمنين عليه السلام في ما رُوي في كتاب (نهج البلاغة) وغيره، أكثر من حديث عن التاريخ وأحوال الأمم، ودعواته المتواصلة في دراسة شعوب هذه المجتمعات في ضعفهم وقوّتهم، فيما قاموا به من تجارب سلبيّة أسقطت أوضاعهم، أو تجارب إيجابية رفعت مستواهم؛ لأنّ الإمام عليه السلام يوجّه الناس إلى أن يدرسوا الفكرة في خطوطها النظريّة والعملية، ثم يُتابعوها في تأثيراتها في ساحة التجارب؛ لأنّ التجربة في قيمتها العلمية تُثبت واقعية الفكرة، فالتجربة السلبيّة لفكرة سلبيّة، تُثبت أنّ هذه الفكرة إذا انطلقت في واقع، فإنّها تؤدّي إلى نتائج سيّئة في حياة الإنسان، وإذا كانت التجربة منفتحة على فكرة إيجابية، فإنّها تؤكّد واقعية هذه الفكرة ودورها في التأثيرات الطيّبة على حياة الإنسان.

ونحن نعرف أنّ أصول المعرفة في الإسلام تنطلق في دائرتين:

١ـ دائرة التأمّل، وذلك عندما تُطرح الفكرة، فيحاول الإنسان أن

يحرّك عقله ليتأمّل في عناصرها، ليلحظ ما يُمكن للفكرة أن تمثّله من حقيقة واقعيّة. وهذا ما درج عليه الفلاسفة في التاريخ.

٢ ـ دائرة التجربة، حيث جاء الإسلام ليركّز المعرفة على خطّ التجربة. وقد ورد عن الإمام علي عليه السلام: «**التجربة عقلٌ مستحدَث**».

فالتجربة تمثّل، في حركيّتها وامتداداتها، المعرفة العقلية التي تتحرّك في الواقع. وقد ورد في حديث الإمام علي عليه السلام وهو يدعو الناس إلى الاستفادة من التجربة: «**خيرُ ما جرّبتَ ما وَعَظَك**» (غرر الحكم، ٣٧٠٩).

وللتّجربة خطّان:

الخطّ الأوّل: هو تجربتك في ممارساتك الخاصّة؛ فأنت تجرّب الحُلو والمُرّ، والخبيث والطيّب، والخير والشر؛ لتكتشف ما في داخل هذه المفردات من العناصر الجيّدة أو العناصر غير الجيدة؛ لتأخذ منها علماً يحدّد لك طبيعة ما عايشتَه من هذا الجانب أو ذاك.

الخطّ الثاني: تجارب الآخرين، عندما ينطلق التاريخ كلّه في مدى الزمن؛ لينقل إليك تجارب الآخرين في حياتهم الخاصّة وفي حياتهم العامّة، فهناك الذين واجهوا الأنبياء، وتمرّدوا عليهم ووقفوا ضدّ حركتهم في المجتمع، وأثاروا المنازعات والخلافات والفِتن التي تنطلق من القِيَم السلبيّة، وفي مقدّمها العصبيّة.

وفي مقابل ذلك، هناك الذين وقفوا معهم، وقدّموا تجربة الوحدة والألفة والاجتماع والتواصل والتكامل، التي إذا أخذت بها هذه الأمّة أو تلك، فإنّها تسيرُ في الخطّ الذي يمكن أن يصنع الخير والسلام، ويخطّط لصنع

الحضارة، ممّا يمكن له أن يطوّر حركة العلم أو حركة الانفتاح والوعي وما إلى ذلك.

القرآن والاستفادة من التجارب

ونحن نعرف أنّ ذلك كلّه كان من خلال الوحي القرآني الذي حدّثنا عن قصص الماضين ممّن عارضوا الأنبياء واضطهدوهم، وممّن آمنوا بهم وساعدوهم، في حديثه عن النتائج الطيّبة وغير الطيّبة لهذه التجارب. وهذا ما نقرأه في قوله تعالى: ﴿**لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ**﴾ [يوسف:١١١]، والعبرة تمثّل الثقافة التي يأخذها الإنسان من التجربة وفقاً لدراسة طبيعتها ونتائجها.

ونقرأ في أكثر من آية دعوةً للإنسان لأن يقرأ آثار الماضين ويدرس كيف تمرّدوا، وكيف سقطوا، وكيف أنزل الله بهم العذاب انطلاقاً من تمرّدهم على الله وعلى رُسله. فقال تعالى: ﴿**قُلْ سِيرُواْ فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ**﴾ [الأنعام:١١]، ﴿**فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ * أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا...**﴾ [الحج:٤٥-٤٦]، ﴿**أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**﴾ [الروم:٩]، وغيرها من الآيات.

استنطاق التاريخ

ولذلك، فإنّ الإمام عليّاً عليه السلام في خطبته، يدفع بنا إلى أن نستنطق

التاريخ في دراسة تجاربه، فيقول: «**واحذروا ما نزل بالأمم قبلكم من المَثُلات**»، والمراد من كلمة مثُلات،العقوبات التي تنزل بالناس نتيجة انحرافهم عن الخطّ المستقيم «**بسوء الأفعال**» التي مارسوها، «**وذميم الأعمال**»، التي تؤدّي إلى نتائج غير جيّدة، «**فتذكّروا**»، وأنتم تسترجعون الماضي وتحاولون أن تنفتحوا على كلّ آثاره وأوضاعه، «**في الخير والشرّ أحوالهم**»، أي ادرسوا مواقع الخير عندهم وما هي نتائجها، ومواقع الشرّ عندهم وما هي آثارها، ولا تمرّوا على سِيَر التاريخ مرور الكرام، بل توقّفوا عندها وقفة الإنسان الذي يُحاول استخلاص الأفكار السليمة التي تقوده إلى الاعتبار بما يحقّق له الخير في حياته. «**واحذروا أن تكونوا أمثالهم**»، بحيث تسيرون على هَديهم، وتأخذون بصيغتهم، فتقعون في ما وقعوا فيه، وتعانون مما عانوا منه. «**فإذا تفكّرتم في تفاوت حالَيهم، فالزموا كلّ أمرٍ لزمت العزّة به شأنهم**». وهنا يُشير الإمام عليه السلام إلى عناصر الخير وعناصر النجاح، وكيف استطاعوا أنّ يأخذوا بأسباب العزّة التي ترتكز على قاعدة القوّة؛ لأنّه لا عزّة من دون قوّة، سواء كانت هذه القوّة قوّة روحية أو قوّة جسدية أو قوّة الموقف التي تمنع الآخرين من أن يعتدوا عليك أو أن يُسقطوك.

«**وزاحت الأعداء له عنهم**»، أي أُبعدت، فحاولوا أن يتعرّفوا ما أبعد الأعداء عنهم؛ لأنّ الأعداء رأوهم وهم يأخذون بأسباب القوّة وأسباب العزّة والكرامة، «**ومُدَّت العافية فيه عليهم**»، أي انطلقت العافية من البلاء، والعافية من الاعتداء، بما أخذوا به من أسباب العزّة. «**وانقادت النعمة له معهم**»؛ لأنّهم عندما يتواصلون ويتكاملون ويقوّي بعضُهم البعضَ الآخر ويتعاونون، فمِنَ الطبيعي أن تتوافر لهم كلّ أسباب النعمة؛ لأنّ النّعمة

تنطلق من خلال تحرّك كلّ الطاقات في عملية النموّ، وفي عملية الاستثمار، وفي عمليّة الحصول على المكاسب وعلى الأرباح التي يحتاجها الإنسان هنا وهناك. «**ووصلت الكرامة عليه حبلهم**»، أي انطلقت كرامة الله سبحانه وتعالى، فأفاضت رحمته عليهم، وبذلك وصل الله حبلهم بحبله.

«**من الاجتناب للفُرقة، واللّزوم للأُلفة**» (نهج البلاغة، ص٤٦٦، خطبة١٩٢)، وكلّ ذلك لأنّهم اجتنبوا الفرقة التي تُمزّق مجتمعهم وتُسقط وحدتهم؛ والفرقة تؤدّي إلى أن يقف كلّ فريق في مواجهة الفريق الآخر، ويحاول أن يتحرّك بطريقة عدوانيّة أو بطريقةٍ غير جيّدة ضدّ الطّرف الآخر؛ فإذا حصل ذلك، فإنّ الأعداء سوف يستغلّون ذلك ليُسقطوا المجتمع من خلاله. فهؤلاء اجتنبوا الفُرقة، ولزموا ما يربط بعضهم ببعض، ويفتح قلوب بعضهم على بعض.

وهذا ما نستوحيه في قوله تعالى: ﴿**وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ...**﴾[آل عمران: ١٠٣]، بحيث يصل كلّ فريق من الجماعة حبله بحبل الآخرين؛ من خلال وحدة الحبل، وهو الإسلام، كما فُسّر في حديث، وهو القرآن كما فُسّر في حديث آخر. وأيّاً كان، فهو الخطّ الذي يربط الناس بالله سبحانه وتعالى، ﴿**وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء...**﴾[آل عمران: ١٠٣] قبل أن تدخلوا في الإسلام، وقبل أن يجمعكم رسول الله على الإيمان بالله، لتنفتحوا على كلّ القيم الروحية والتقوى العملية.

وهذه الآية نزلت في الأَوس والخزرج، وهما القبيلتان الأساسيّتان اللّتان تمثّلان مجتمع الأنصار في المدينة المنوّرة، عندما أُريد لهم من

قِبل بعض اليهود أن يرجعوا إلى تاريخ العصبيات ليثيروا حساسيّاتهم، وليدفعوا بالمجتمع إلى النزاع، وربما إلى التقاتل، ﴿فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ [آل عمران:١٠٣]، والمقصود بالقلوب في القرآن هي العقول، وربّما تمتدّ إلى كلّ المنطقة الداخليّة للإنسان، من المشاعر ومن الأحاسيس والانفعالات، فإنّ القلوب إذا تآلفت انفتحت على بعضها البعض، واستطاعت أن تصل إلى الوحدة على مستوى الخطّ وعلى مستوى النتائج.

وقد أكّد الله سبحانه وتعالى هذه الأُلفة بين المؤمنين من خلال لُطفه ورحمته، وهذا ما عبّرت عنه الآية الكريمة: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٣]. وقد قال تعالى للنبيّ ﷺ في آية أُخرى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ* لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية:٢١-٢٢]؛ لأنّك لا تملك قلوب الناس، وإنّما تملك الأساليب التي يمكن أن تفتح القلوب عليها، ليتحرّك كلّ فريق من خلال مفردات هذا الانفتاح ليلتقي بالفريق الآخر، فالمال لا يمكن أن يؤلّف بين قلبين وبين عقلين وبين اتّجاهين، بل إنّما يحلّ مشكلةً هنا ومشكلةً هناك، ويلبّي طمعاً هنا وطمعاً هناك، ﴿وَلَـكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾؛ لأنّ الله هو مالكُ القلوب، وهو مقلّب القلوب.

منهاج الوحدة والاتحاد

«**والتحاضّ عليها والتواصي بها**»؛ إذ لا يكفي أن لا تتفرّقوا أو أن تتآلفوا، بل لابدّ من أن يحمل كلّ واحدٍ منكم رسالة الرفض للفُرقة، والدّعوة إلى الأُلفة، فالمطلوب أن تَحُضّوا على الأُلفة وأن تتواصوا بها، وهذا ما أراده

الله سبحانه وتعالى لنا وبيّنه في سورة العصر عندما قال: **﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾** [العصر:٣]، فلا يكفي الإيمان بالحقّ، بل لابدّ لك من أن تدعو إلى الحقّ، والحقّ هو كلّ ما يرتفع بالناس ليقرّبهم إلى الله سبحانه وتعالى، ويقرّبهم إلى مصالحهم.

ولذلك، لابدّ لنا، من خلال إيحاء هذه المفردات، أن ننفتح على كلّ القيم؛ فلا يكفي أن ترتبط بالقيم، بل لابدّ لك، أن تحضّ عليها وأن تُوصي الآخرين بها؛ لأنّ الإسلام يريد من كلّ مسلمٍ أن يأخذ بخطّ الدّعوة إلى التّقوى، إلى جانب الالتزام بخطّ التقوى نفسه، وقد قال تعالى: **﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾** [آل عمران: ١٠٤].

ثمّ ينتقل الإمام عليه السلام إلى بيان الجوانب السلبية، فيقول: «**واجتنبوا كلّ أمر كسر فقْرَتهم**»، والمقصود بالمقرة هي فقرة الظهر، وهي كناية عن كسر ما يمثّل العماد الذي يقوم عليه المجتمع، نظير الظهر الذي يُكسر ويؤدّي بالإنسان إلى أن لا يملك الاستقامة في مَشْيِه وفي حركته. «**وأوهن منَّتهم**»، والمنّة هنا يُراد بها القوّة، أي أوهن قوّتهم، «**من تضاغن القلوب**»، حيث يحمل كلّ قلب الضغينة على الآخر. ومن الطبيعي أنّ الضغينة تختزن الحقد والعداوة، وبالتالي فإنّها تؤدّي إلى سقوط المجتمع في ذلك كلّه، «**وتشاحن الصدور**»، بأن تتحرّك الصدور، التي هي كناية عمّا يختزنه الإنسان من المشاعر والأحاسيس، في الحقد بين إنسان وإنسان، «**وتدابر النفوس**»، وهو كناية عن الإعراض عن الآخر، بحيث يولي كلٌّ منهم للآخر ظهره، بحيث يذهب كلّ واحد في اتّجاهٍ غير الاتّجاه الذي يذهب به الإنسان الآخر، ويقف الموقف الذي يُضادّ موقف الآخر، من دون نظر إلى ما يجمع

بينهما في هذا المجال. «**وتخاذل الأيدي**» بحيث لا تنطلق اليد من أجل أن تعاون الواحدة الأخرى، وذلك عندما يتعرّض للاعتداء من قبل الناس الذين يعتدون عليه.

يحاول الإمام علي عليه السلام، في ما نستقبل من حديث، أن يُدخلنا في المسير التاريخيّ، لندرس حركة الأمم التي سبقتنا وعاشت النصر والهزيمة وحالة التماسك والانحلال، وأسباب هذه الحالة أو تلك، وهذا ما يمثّل المنهج الإسلامي في دراسة التاريخ، لأنّه ـ أيّ التاريخ ـ لا يُدرَس من حيث كونه مادّةً للتسلية أو للاستهلاك أو للاستغراق في أحداث الماضي، لأنّ التاريخ يذهب بموت أصحابه كأحداث زمانيّة أو مكانيّة أو حالات إنسانيّة، ويبقى منه الفكرة والدروس التي يمكن أن نستنتجها من التجارب التي عاشها الماضون وأدّت إلى نتائج إيجابيّة أو سلبيّة، أو من خلال الفكر الذي صنعه المفكّرون والرساليّون في التاريخ، والذي يستمرّ في الحياة، لأنّه الفكر الإنسانيّ الذي ينطلق من عمق العبقريّة الإنسانيّة، ولا ينطلق من الحالة الشخصيّة المحدودة، وهذا ما ذكره القرآن الكريم مختصراً في آية واحدة بقوله تعالى: ﴿**لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ**﴾ [يوسف:١١١]، والعِبرة هي الدرس.

وهذا ما ينبغي لنا أن ننتهجه من التجربة الإنسانيّة التي يبقى منها الجوهر للمستقبل، فلا نعيش الغيبوبة في التاريخ، بحيث نكون أمّة الماضي وننسى الحاضر ولا نهتمّ بالمستقبل، وهو ما تعيشه الكثير من الشعوب الشرقيّة، حيث إنّها تستغرق في التاريخ لتدرس خلافاته وأحقاده لتنقلها إلى الحاضر، فكأنّها تستحضر في الحروب التاريخيّة ما قد يُبقي الحرب ساخنةً وحيّةً للدخول من حالة الحرب مع هذا الفريق ضدّ ذاك الفريق،

معتبرين أنّ المعركة مع أولاد ذلك الفريق ممّن غاب آباؤهم في القبور، وهكذا تمَّ نقل معارك التاريخ إلى الحاضر، بل وإلى المستقبل أيضاً.

قد يقول قائل بأنّ التاريخ في بعض صراعاته مسألة تتّصل ببعض جوانب العقيدة، لأنّ بعض الشخصيّات التاريخيّة قد تكون شخصيّات مقدّسة في مقابل شخصيّات مستعلية لا تملك من القداسة شيئاً، فكيف نكون مع هذا الفريق ضدّ ذاك الفريق؟ ولكننا نقول إنّ الشخصيّات المقدّسة ليست شخصيّات تاريخيّة، وإنّما هي شخصيّات رساليّة إنسانيّة تمتدّ في امتداد الحياة.

شخصيّات تاريخيّة

ونحن لا نستطيع أن نعتبر شخصيّة الرسول ﷺ شخصيّة تاريخيّة، بل هو، كما في قوله تعالى: ﴿**مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً**﴾ [الأحزاب:٤٠]، ولذلك فهو يمتدُّ ما امتدّت الرسالة، وكذلك الإمام علي عليه السلام ليس شخصيّة تاريخية تتأطَّر بالزمن الذي عاش فيه، بل هو إنسان الرسالة، وهكذا بالنسبة للأئمّة عليهم السلام. ونحن نأخذ هذا الوهج وهذا الضوء من شخصيّات الرسالة، ولكن علينا أن لا ننقل معارك الماضي إلى الواقع، حيث كانت هناك خلافات وحروب فيها ظالم ومظلوم، فحاربوا الحقّ واتّبعوا الشيطان من أجل أطماعهم ومصالحهم الخاصّة، فركبوا رؤوسهم ولم يأخذوا بالحوار، ولكن أبناء هؤلاء لا دخل لهم بهذه الحروب، وربّما ورثوا من آبائهم الموقف، ودورنا أن لا نحاربهم لمجرّد أنّهم أبناء أولئك، بل أن نحاورهم ونرشدهم وننقذهم ممّا هم فيه من ضلال ورثوه من خلال الآباء والأجداد ﴿**لاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ**

أُخْرَى﴾ [الإسراء: ١٥]، فإذا كان آباؤهم قد ظلموا وطغوا، فليس ذلك سبباً لنجعل أبناءهم في نفس الاتجاه، لأنّ لكلّ جيلٍ مهمّة رسالية، ومن خلال ذلك يبدأ في الواقع الإسلاميّ الحوار بين الاتّجاهين المختلفَين، فلا ينظر السُّني إلى الشيعيّ من خلال التعقيدات التاريخيّة ليُحمِّل شيعة اليوم بعض سلبيّات الماضي أو بالعكس، ولا ينظر الشيعيّ إلى السُّني ليحمّله كلّ ما حدث في الماضي ضدّ الشيعة، ﴿**تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ [البقرة: ١٣٤]، فلقد كان المسلمون الأوائل أبناءَ المشركين، ولكنّهم دخلوا الإسلام وأصبحوا أكثر الناس إخلاصاً للإسلام.

الانفتاح على الآخرين

ومن جهة أخرى، فإنّ علينا أن لا نتعقَّد من الاتّجاهات الإسلاميّة الأخرى التي تختلف معنا، فهناك فَرْقٌ بين أن نتعقَّد منهم وبين أن نختلف معهم. وليس معنى أن ننفتح على الآخرين أن نسقط ما يفكّرون به ونترك ما نفكِّر به، ولكن علينا أن نفتح قلوبنا لهم ﴿**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ...**﴾ [آل عمران:١٥٩]، ننظر إلى الأمور نظرة صاحب رسالة، كما هو حال التاجر في السّوق، بحيث يوسِّع صدره لزبائنه وهو يعرض عليهم البضائع ليرغّبهم بالشّراء، فيجلب أكبر قدر ممكن من الزبائن.

أمّا في مجال الدعوة إلى الإسلام، فقد نلاحظ أنّه قد يهرّب الزبائن من بيننا بالأساليب العنيفة، والتي يحاول البعض أن يُسقط منها مواقع البعض الآخر، سواء من السُّنّة أو الشّيعة. فهذا يكفِّر ذاك، وذاك يضلِّل

هذا، وآخر يُفسِّق، وذاك يحرِّم كُتُبَ هذا، وذاك يحرِّم الاستماع لذاك، وما إلى ذلك، بينما كان النبيّ محمّد ﷺ يقبل من الناس أن يُسلموا بدون إيمان، فالواحد قد يُسلم رهبةً أو رغبةً، لأنّ الإسلام أصبح قوّةً وله مكاسب، حتى إنّ الإسلام جعل في الزكاة سهماً للمؤلّفة قلوبهم، وهم الذين دخلوا الإسلام ولم يرتكز الإسلام في قلوبهم، كما نقرأ في قوله تعالى حول مسألة الإيمان: ﴿**قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ...**﴾ [الحجرات:١٤]، فالنبيّ ﷺ كان يريد أن يدخل أكبر عدد من الناس في دين الإسلام، ولو بهدف تحييدهم عن الشّرك، في بداية الأمر، إذ كان ﷺ يريدهم أن يعيشوا أوّلاً في مناخ إسلاميّ ثم يُدخلوا في الإسلام عن قناعة من خلال الدراسة والموعظة. أمّا نحن، فإنّنا نريد من الإنسان إمّا أن يكون مسلماً ١٠٠٪ أو لا يكون.

الحاضر صورة الماضي

لذلك علينا أن نُعيد النظر في قضيّة تعاملنا مع التاريخ، فنحن مسؤولون عن المستقبل وعن الحاضر، ولسنا مسؤولين عن الماضي والتاريخ ﴿**تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾[البقرة: ١٣٤]. فعليكم أن تأخذوا الفكرة وتقارنوا بين نموذج الماضي ونموذج الحاضر. وللأسف، فإنّنا عندما نلعن الآن الكثير من أمور الماضي، فإننا نقدّس الكثير من أمثالها في الحاضر، فكم من يزيد الآن نتبعه، وكم من حسين عليه السلام الرسالة والإصلاح نتنكّر له ونقاتله. والإمام علي عليه السلام يريدنا أن ندرس التاريخ، لنتعلّم من دروسه ما يفيد في الحياة.

التدبّر التاريخي

ثمّ يتوجّه الإمام عليه السلام بالخطاب قائلاً: «**وتدبّروا أحوال الماضين من المؤمنين قبلكم**» هؤلاء الذين ساروا على ما أنتم عليه من الالتزام بالإسلام والسَّير في خطّ الإيمان.. «**كيف كانوا في حال التمحيص والبلاء**» يعني أنّ هؤلاء المؤمنين قد دخلوا ـ عندما أخذوا بأسباب الإيمان ـ في تجربة البلاء والتمحيص، لأنّ الله يمحِّص المؤمن ليظهر جوهره، ويبتليه ليختبره، وهذا ما عبّرت عنه الآية الكريمة: ﴿**أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ* وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ**﴾ [العنكبوت: ٣]، فإنّ الذين أطلقوا كلمات الإيمان ولم يتحمّلوا مشاقّ التجربة الصعبة، سقطوا وسقط إيمانهم عند ذاك.

ولذا يقول الله سبحانه وتعالى في آية أخرى: ﴿**قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرّاً عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ**﴾ [النمل: ٤٠]، لأنّ الإنسان أحياناً عندما يُبتَلى فهو بين شكرٍ للنّعمة وبين كفر لها، بحسب ما يواجهه من حالة التجربة الصعبة.. «**ألم يكونوا أثقل الخلائق أعباءً، وأجهد العباد بلاءً**» حيث عاشوا صعوبة الحياة كأشد ما تكون، فعندما ندرس كيف كانت المسيرة الأولى في حياة النبي صلى الله عليه وآله وسلم في مكّة، وكيف تحمّل المسلمون الاضطهاد والعذاب حتى الشهادة، حيث استُشهد ياسر وسُميّة والدا عمّار عندما رفضا أن يقولا كلمة الكفر، ثمّ اضطّر المسلمون من خلال ذلك لمواجهة الحصار الشديد، ومن ثَمّ اضطّروا للهجرة إلى الحبشة ليتخفّفوا من أثقال ذلك البلاء الذي ابتُلوا به من خلال دخولهم في خطّ الإسلام والإيمان، حتى

قال رسول ﷺ: «**ما أُوذي نبي مثلما أُذيت**»، لأنّ بقيّة الأنبياء أُوذوا في جانب واحد، ولكن النبي محمد ﷺ قد أُوذي مِنْ عدّة جوانب، باعتبار أنّ حياته ﷺ كانت متحرّكة في السِّلم والحرب والدّعوة مع المجتمع المعقّد الذي كان يواجهه بما لم يعشه أيّ نبيّ مثله، حتى النبيّ موسى عليه السلام الذي عاش ظرفاً صعباً مع بني إسرائيل، فإنّه لم يعش تنوّعات الحرب مثلما عاشها النبيّ محمد ﷺ، خصوصاً تنوّعات الحرب والسِّلم. فالنبيّ موسى عليه السلام واجه في موقع الدعوة، وقد سلّحه الله بالآيات التي أسقط بها السَّحَرة وأسقط بها فرعون من خلال ذلك..

«**وأَضْيَق أهل الدنيا حالاً**» فيما كانوا «**اتّخذتهم الفراعنة عبيداً فساموهم سوء العذاب وجرّعوهم المرار**» كما في حالة قوم موسى، كما أشار إلى ذلك القرآن بقوله تعالى: ﴿**وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوَءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ**﴾ [البقرة:٤٩].. «**فلم تبرح الحال بهم في ذلّ الهلكة وقهر الغلبة**» يعني استمرّوا في ما يُفرَض عليهم وفي ما يُقهرون به من غلبة الآخرين عليهم.. «**لا يجدون حيلةً في امتناع**» فلا يملكون الوسائل التي يستطيعون من خلالها الامتناع من ضغط الفراعنة.. «**ولا سبيلاً إلى دفاع**» فلا يملكون السِّلاح أو أي عنصر من عناصر القوة.

«**حتى إذا رأى الله سبحانه جدّ الصبر منهم على الأذى في محبته**» فلم يتنازلوا ولم يخضعوا لكلّ ضغوط الكفر والاستكبار..«**والاحتمال للمكروه من خوفه**» إذ كانوا يخافون الله، فيتحملون المكروه خوفاً من السقوط والابتعاد عن الله.. «**جعل لهم من مضايق البلاء فرجاً**» فأفاض الله عليهم من لطفه ما نقلهم من الضعف إلى القوة كما في قوله تعالى:

﴿وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق:٢-٣].. «**فأبدلهم العزّ مكان الذلّ، والأمن مكان الخوف، فصاروا ملوكاً حكّاماً، وأئمّةً أعلاماً، وقد بلغت الكرامة من الله ما لم تبلغ بهم إليه بهم**» وهذا هو الذي حدث في زمن موسى عليه السلام لقومه وأتباعه عندما أغرق الله فرعون وهزمه وقومه، وانتصر المؤمنون بموسى عليه السلام وأصبحت مصر تحت سلطتهم.

فَتْحُ مكّة

وهكذا بالنسبة للمسلمين عندما انتصروا على المشركين بزعامة قريش، وفتحوا مكّة، فسقطت قريش بتأثير القوّة وانتصار السلاح، فدخل الناس في دين الله أفواجاً.. **﴿إِذَا جَاء نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجاً* فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً﴾** [النصر:١-٣]، لأنّ الناس في الجزيرة العربية كانوا يخافون من قريش، فلم يدخلوا الإسلام، حتى أولئك الذين كانوا يقتربون من مفاهيمه، ولكن عندما سقطت قريش وأصبح الإسلام هو القوّة الأولى، اندفعوا ودخل الناس في دين الله أفواجاً..

«**وبلغت الكرامة من الله لهم ما لم تبلغ الآمال بهم**» بمعنى أنّ الله أعطاهم ما كانوا يأملون.. «**فانظروا كيف كانوا حيث كانت الأملاء مجتمعة**» والأملاء جمع ملأ أي الجماعة والقوم.. «**والأهواء مؤتلفة**» يعني متّفقة.. «**والقلوب معتدلة**» ليس فيها انحراف أو تطرّف أو ابتعاد عن الخطّ المستقيم.. «**والأيدي مترادفة**» مع بعضها البعض ويساعد بعضها البعض.. «**والسيوف متناصرة**» فالسيف ينتصر للسيف والسلاح ينصر

السلاح.. «**والبصائر نافذة**» إذ كانوا يعيشون الوعي لكلِّ التحدّيات التي تحيط بهم، وكانوا يملكون البصيرة النافذة التي تستطيع أن تنظر إلى الأمور بكلِّ عمق وتنفتح على المستقبل بكلّ انفتاح.. «**والعزائم واحدة**»، فكانوا يمثِّلون العزيمة القويّة التي تجتمع فيها كلّ العزائم والإرادات، لتتحوَّل إلى قوّة في مواجهة عزائم الكفر والاستكبار..

«**ألم يكونوا أرباباً في أقطار الأرضين**» يعني أصحاب القوَّة والقرار.. «**وملوكاً على رقاب العالمين**» ثم دارت الأمور «**فانظروا إلى ما صاروا إليه في آخر أمورهم**»، فكان الإمام علي عليه السلام يتحدّث عن المسلمين في مثل هذه المراحل وما قبلها، حيث سيطر المستكبرون والكافرون على مقدرات المسلمين، فما هي الظروف التي قلبت الأمور رأساً على عقب. «**حين وقعت الفُرقة**» فصاروا كما في قوله تعالى: ﴿**مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً**﴾ [الروم: ٣٢]، وقوله تعالى ممّا أشار إليه في آية أخرى ﴿**وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ**﴾ [الأنفال: ٤٦]، فالريح عندما تكون مندفعة بقوّة من جانب واحد فإنَّها تقلع الأشجار وتهدم البيوت وما إلى ذلك.. «**وتشتّت الألفة**» فصار كلّ واحد يعادي الآخر.. «**واختلفت الكلمة والأفئدة**» فأصبح لكلٍّ شعارُه وعناوينُه وما إلى ذلك، واختلفت القلوب، فأصبح كلّ قلب يتّجه في اتّجاه مختلف عن الآخر.. «**وتشعّبوا مختلفين، وتفرّقوا متحاربين**» ﴿**كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ**﴾ [المؤمنون: ٥٣]، فكلّ جماعة لا تندمج مع جماعة أخرى، فالكلَّ يريد الزعامة، ولذلك تعدّدت الأحزاب.. «**قد خلع اللهُ عنهم لباسَ كرامته**» عندما ابتعدوا عن حسّ الكرامة والمسؤولية في الأمّة.. «**وسلبهم غضارة نعمته**» والغضارة هي السّعة.. «**وبقي قصص أخبارهم فيكم عبراً للمعتبرين منكم**» (نهج البلاغة لأمير المؤمنين الإمام علي

ابن أبي طالب عليه السلام: الخطبة رقم ٢٢٤ الخطبة القاصعة. ص٢٩٦_٢٩٧)، لتأخذوا منهم الدروس والعِبَر. وهو ما يشير إليه الإمام علي عليه السلام في الحديث عن التاريخ، حيث يرسم المنهج الإسلامي للتعاطي معه.

من تاريخ الأمم

يذكّرنا الإمام علي عليه السلام في عمليّة توجيه لدراسة تاريخ وُلد إسماعيل- وهم العرب - ووُلد إسحاق - وهو تعبير عن اليهود أو «بني إسرائيل» -حيث وقع العرب تحت سيطرة الأكاسرة، بينما وقع اليهود تحت سيطرة القياصرة، ومن خلال ذلك، عاشوا الاضطهاد والاستعباد، فلم يملكوا أمرهم ولا مستقبلهم.

وما يريد الإمام علي عليه السلام بيانه في هذا المجال، أنّكم ربّما تسيرون في هذا الاتّجاه وتعيشون تلك التجربة، فعليكم أن تدرسوا التجربة لتتفادوا نتائجها السلبيّة فيما تستقبلونه من أموركم، حتى لا تقعوا في ما وقعوا فيه.. وفيما يلي، نتابع نصّ حديث الإمام عليه السلام في هذا الجانب، ونتابع استيحاء كلماته في كلّ أوضاعنا السياسية والاجتماعية، حيث يقول عليه السلام: «**واعتبروا بحال ولد إسماعيل وبني إسحاق وبني إسرائيل عليهم السلام، فما أشدّ اعتدال الأحوال وأقرب اشتباه الأمثال**»، يعني خذوا العبرة والدرس في أحوال بني إسماعيل وبني إسحاق، فقارنوا بين أوضاعهم وأوضاعكم، وبين سلوكيّاتهم وسلوكيّاتكم، لتعرفوا أنّ حالكم الآن هو مثل حالهم سابقاً، وأنّ مَثَلكم الآن هو مَثَلهم في السابق، ولذلك فإنّ الحديث عنهم يعني الحديث عنكم، باعتبار أنّ وضعكم يُشبه وضعهم وحالكم عِدْلٌ لحالهم. وهو

المقصود باعتدال الأحوال. وإنّ مَثَلَكُم يشابه مثلَهُم، وهو قوله: وأقرب اشتباه الأمثال.

«**تأمَّلوا أمرهم في حال تشتّتهم وتفرّقهم**» حيث كانوا عشائر متناحرة، وقبائل متنازعة، ومجتمعات لا تأخذ بأسباب القضايا المشتركة ومواطن اللّقاء فيما بينها، بل تعيش الفواصل، وتسقط تحت تأثير العصبيّات التي لا معنى لها، «**ليالي كانت الأكاسرة**» وهم ملوك فارس، «**والقياصرة**» وهم ملوك الروم الذين كانوا مقيمين في نواحي الشام، «**أرباباً لهم**» أي كانوا يسيطرون عليهم ويملكون أمرهم ويهيمنون على كلِّ مقدّراتهم.. «**يحتازونهم عن ريف الآفاق وبحر العراق وخضرة الدنيا**» يعني أنّهم كانوا يعيشون في بلاد خضراء وأنهار تتفجّر وتفيض، وأرياف تعطي الكثير من المزروعات التي تغذّيهم وتغذي أنعامهم، فكانوا يحتازونهم عن كلِّ ذلك «**إلى منابت الشيح**» الأشواك «**ومهافي الريح**» أي الأماكن التي تهبُّ فيها الرياح وهي الصحارى؛ فبينما يكونون في مواقع الحضارة والرخاء، وإذا بهم ينقلونهم إلى الصحراء ليعيشوا حياتها «**ونكد المعاش**» أي شدّة العيش وعسرته.. «**فتركوهم عالةً مساكين**» أي لا يملكون اقتصاداً مستقلاًّ، فهم يعيشون الفقر ويطلبون حاجاتهم من الآخرين.. «**إخوان دَبَرٍ ووبر**» فكانوا يأكلون الحيوانات بدمائها - حسب بعض التفاسير - أو كناية عن الجِمال، وفي ذلك إشارة إلى فقرهم وضيق معيشتهم..

«**أذلّ الأمم داراً**» فلا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم وعن دورهم حين يهاجمهم أحد، «**وأجدبهم قراراً**» إشارة إلى عدم وجود خصب في المكان الذي يستقرّون فيه، إذ ليس فيه رخاء، بل كانت أرضهم مجدبة غير مزروعة.. «**لا يأوون إلى جناح دعوة يعتصمون بها**» فلا يملكون قاعدة

تظلّلهم كما يظلّل الجناح ما تحته بحيث يعتصمون كما يعتصم الإنسان من حرارة الشمس.. «**ولا إلى ظل أُلفة يعتمدون على عزّها**» إذ لا يملكون نوعاً من الألفة الاجتماعية التي يألف فيها أحدهم الآخر، فيتساندون ويتواصلون ويقوّي بعضهم بعضاً ليأخذوا العزّة من خلال ذلك.. وهنا يشير الإمام عليه السلام إلى أنّ تآلف المجتمع في علاقاته ينتج التراحم والتواصل والتعاون، وهذا ما يُكسب المجتمع العزّة.

ويتابع الإمام عليه السلام وصف مآلهم بقوله: «**فالأحوال مضطربة**» فليس هناك استقرار في كلِّ نواحيهم الاجتماعية والاقتصادية والأمنية وما إلى ذلك.. «**والأيدي مختلفة**» فكلُّ يد تتحرَّك في اتجاه يختلف عن حركة اليد الأخرى، وإنّ الأيدي لا تتوافق ولا تتواصل لكي يشدَّ بعضها بعضاً، وهو كناية عن أنّ المجتمع يتحرّك أفراده كلٌّ منهم في اتّجاه يختلف عن الاتّجاه الآخر، ولا يتحرّك الجميع باتّجاه هدف مشترك.. «**والكثرة متفرّقة**» فإنّنا عندما ندرس الأرقام العدديّة التي يتمثّلونها في تعدادهم، فنجد في ذلك الكثرة التي لم تجتمع لتمثِّل القوّة، لأنّ الكثرة إنّما تشكّل قوّةً عندما تنضم جهود الأفراد إلى بعضها البعض، أما إذا كان كلّ عدد يتحرّك وحده، فإنّه لا يمثِّل قوةً تذكر. وكمثال على ذلك، لو أنّ إنساناً يملك مليون دينار، ولكن كلّ دينار من هذه المليون موجودة في منطقة، فإنّه لا يستطيع أن يحركها إلى جانب الدنانير الأخرى، لأنّ قوّة المليون المتفرّقة كأنّها قوّة الدينار الواحد.

وهكذا بالنسبة إلى المجتمع، فهو إنّما يكون قوّةً بالملايين حينما يكون الأشخاص الذين يؤلّفون الملايين موحّدين ومتعاونين ومتواصلين، وإلا فكما يقول المثل: «كلٌّ يغنّي على ليلاه». ويشير

القرآن الكريم إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿**وَأَطِيعُواْ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ**﴾ [الأنفال:٤٦]، أو كما في حديثه عن اليهود: ﴿**تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى**﴾ [الحشر: ١٤]، بمعنى أنّه لم يكن هناك مجتمع يهوديّ في صدر الإسلام، وإنّما كانوا أفراداً، ولذلك فقد انتصر الإسلام عليهم آنذاك، حيث كان المسلمون كما في الآية الكريمة: ﴿**مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ**﴾ [الفتح: ٢٩].

كثرة مشتّتة

فالإمام عليه السلام يريد أن يقول بأنّ وُلْدَ إسماعيل ووُلْدَ إسحاق كانوا يمثّلون الكثرة العددية. ولكنّها كانت كثرةً متفرّقةً لا تعطي قوة.. «**في بلاء أَزْل**» يعني بلاء شديد.. «**وإطباق جهل**» إذ كان الجهل مسيطراً عليهم، لأنّهم لم يأخذوا بأسباب العلم الذي ينير الطريق إلى القوة والانتصار والإبداع والإنتاج، وهو ما ترتفع الأمّة من خلاله.. «**من بنات موءودة**»، فكان وأد البنات يمثّل تقليداً من تقاليد عرب الجاهلية قبل الإسلام، حيث سادت هذه العادة على إثر مهاجمة الفُرس على بعض المناطق العربية وأخذوا أموالهم وسبّوا ذراريهم ثم حصلت الهدنة وطلب العرب منهم أن يُرجعوا ذراريهم ونساءهم، فقال كسرى إنّه يُعطي الحرية لكلّ أسيرة تريد اللّحاق بأبيها أو زوجها، فكلّ بنت لحقت بأبيها إلا بنتاً واحدة، وهي بنت عاصم بن قيس الذي يُعتبر شريف قومه، فاختارت البقاء مع الفاتحين أو مع مَنْ سَبَاها، فأخذ عاصم عهداً على نفسه أنّه كلّما يأتيه مولود بنت، فإنّه سيدفنها وهي حيّة حتى لا يُصاب بالعار، كما أُصيب به حينما لم تلحق به ابنته الأسيرة،

من التوحيد إلى الصنميّة

ثمّ يتعرّض الإمام بعد ذلك لقضيّة تحوّل الدين لدى تلك الأمم من التوحيد إلى الصنمية، فيقول: «**وأصنام معبودة**» فقد بدأ وُلْدُ إسماعيل ووُلْدُ إسحاق من مواقع الرسالة، وهي رسالة النبيّ إبراهيم عليه السلام، وانتهوا إلى عبادة الأصنام نتيجة الجهل الذي يجعل الإنسان ينفتح على الخرافات، وأيّ خرافة أعظم من عبادة أحجار على أساس أنّ فيها أسراراً تتّصل بالله وما إلى ذلك؟! إنّ الذهنيّة الخرافيّة التي تسيطر على المجتمع تجعله يعيش مثل هذه الذهنيّة الصنميّة، سواء كانت صنميّة الحجر أو صنميّة البشر، كالذين كانوا يعبدون فرعون أو النمرود أو غيرهما.

ونحن نستوحي من هذه المسألة أنّ علينا أن ندرس كلّ ما يأخذه المجتمع من العادات والتقاليد، حتّى في بعض مفردات العبادة التي يتحرّك البعض فيها دونما وعي، وهي في الحقيقة تبتعد عن التوحيد، ودراسة عادات وتقاليد المجتمع لا تُسقِط المجتمع. كما قد يتوهّم البعض، بل تؤصّله؛ لأنّك عندما تسلّط الفكر على عادة معيّنة أو تقليد معيّن، فتدرس امتداداته وسلبيّاته وإيجابيّاته والظروف التي أوجدته، فإنّك بذلك تأخذ منه الخلاصة التي تخدم حياتنا، والتي تنسجم مع القواعد الفكريّة الأساسية، ونحن نقول: إنّ النّقد لا يخذل المفكِّر ولا يُسقط الحقيقة، بل عندما نُطلقه من خلال قواعده الأصيلة ونديرِ الحوار حوله، فإنّه يكشف لنا الحقيقة، وفي الوقت نفسه يؤكّد لنا الصواب. والإمام عليه السلام عندما يشير إلى السلبيّات التي عاشها المجتمع العربيّ أو اليهوديّ، فإنّه يريدنا أن ندرسها لاستخلاص العِبَر والدروس، لكي نتلافى السلبيّات التي عاشوها على أساس الوعي.

«**وأرحام مقطوعة**» وقد قال تعالى: ﴿**فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ**﴾ [محمد: ٢٢]، فعندما تسود الذهنيّة الماديّة أو العصبيّة وما أشبه، فإنّها تبعد العلاقات الإنسانيّة عن حيويّتها، وتجعل الإنسان ينظر للعلاقات من خلال المنفعة والمصلحة، لا من خلال القيم الروحيّة والأخلاقيّة والإنسانية.. «**وغارات مشنونة**» فكان هذا الواقع العشائريّ والقبليّ هو السائد، فكلٌّ منهم يشنُّ الغارة على الآخر من أجل السّلب والنهب أو الثارات وما أشبه.. فواقع هؤلاء من خلال مناخ عاداتهم وأوضاعهم وتقاليدهم هو الذي جعلهم يسيرون في هذا المنحدر ويقعون في هذه الهاوية.. فكأنَّ الإمام عليه السلام يقول لنا: أنظروا إلى مجتمعكم أنتم، فقد لا تكونون مثلهم في المفردات، ولكن قد تكونون مثلهم بلحاظ الذهنيّة وأسلوب العمل وفي طريقة نظرتكم إلى الواقع.

أفياء الرسالة

هذا ما كان من أمرهم قبل بعثة النبيّ محمد صلى الله عليه وآله، ولكن بعد أن بعث الله رسوله، فكيف تبدّلت الحال؟ يقول علي عليه السلام: «**فانظروا إلى مواقع نِعَم الله عليهم حين بعث إليهم رسولاً فعقد بملتهم طاعتهم**» حيث ركّز المجتمع على أساس القانون الرّساليّ والمفاهيم الروحيّة؛ فدعا هؤلاء الناس إلى الطاعة فيما جاءهم عن الله ورسوله.. «**وجمع على دعوته أُلفتهم**» فحقّق الألفة بينهم على أساس قوله تعالى: ﴿**وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ**﴾ [آل عمران: ١٠٣]. وقضيّة ألفة القلوب لم تنطلق على أساس الشخص، ولا من خلال المال، والجهد الشخصيّ لا

يملك أن يسيطر على العقول والقلوب، والمال قد يطوِّع من تعطيه ولكنّه لا يفتح قلبه، فقال تعالى: **﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾** [الأنفال: ٦٣]، والله تعالى ألّف بين المسلمين من خلال المنهج الإلهيّ لدعوة النبيّ محمّد ﷺ، حيث أدخله إلى وجدانهم وعقولهم، فأصبح مجتمعهم مجتمعاً واحداً يألَف بعضهم بعضاً ويتحرّك بعضه مع بعض في الخطّ الواحد الذي رسمه الله ورسوله ﷺ، فبعد أن كان المسلمون تحت سيطرة كسرى وقيصر يعيشون العبودية، استطاعوا بعد ذلك أن يسيطروا على كسرى وقيصر من خلال الوحدة الروحيّة والخطّ الواضح من خلال الله ورسوله ﷺ..

«**كيف نشرت النعمة عليهم جناح كرامتها**» فأصبحوا يعيشون الكرامة في أنفسهم، ورجعت إنسانيّتهم، فتحرّكوا من موقعها في علاقاتهم ببعضهم البعض.. «**وأسالت لهم جداول نعيمها**» واستطاع المسلمون بفضل الإسلام خلال سنين قليلة، أن يعيشوا الرّخاء والنعمة فيما أفاض الله عليهم من خلال حركة الإسلام في الواقع.

«**والتفّت الملّة بهم في عوائد بركتها**» يعني أن ملّة الإسلام أعطتهم البركة فيما أعطتهم من العوائد والنتائج.. «**فأصبحوا في نعمتها غرقين وعن خضرة عيشها فكهين**» بعد أن كانوا يعيشون الجدب في الصحراء.. «**قد تربّعت الأمور بهم**» أي أخذت مواقعها «**في ظلّ سلطان قاهر**» بعد ضعفهم.. «**وآوتهم الحال إلى كنف عزّ غالب**» حيث أصبحت السُّلطة لهم بعد أن كانت السُّلطة القاهرة للآخرين من الطغاة، «**وتعطّفت الأمور عليهم في ذُرى مُلك ثابت**» يعني انطلقت الأمور التي فتحت لهم الكثير من مواقع القوّة في قمّة الملك الثابت الذي لا يتزلزل.. «**فهم حكّام على**

العالمين، وملوك في أطراف الأرضين، يملكون الأمور على من كان يملكها عليهم، ويمضون الأحكام فيمن كان يمضيها فيهم» فبعد أن كان يملكها الأكاسرة والقياصرة، ويخضعون لحكمهم، انقلبت الأمور وأصبح أولئك تحت حكمهم. «**لا تُغْمَز لهم قناة**» أي رِمحهم متّحد وثابت ولا يمكن أن يلتوي، «**ولا تقرع لهم صفاة**» (نهج البلاغة لأمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: الخطبة رقم ٢٣٤ الخطبة القاصعة، ص٢٩٧-٢٩٨)، فتبقى في موقع القوّة، حيث كان الإسلام عامراً في القلوب والصدور، ثم ماذا حدث للمسلمين بعد ذلك، وهل استمرّوا على هذه النعمة أم أنّهم حوّلوا تلك النعمة إلى نقمة؟!

عليٌّ عليه السلام الحاضر أبداً

وعندما نقرأ عليّاً عليه السلام، فنحن لا نقرأ التاريخ لنتحدّث عن الجمهور الذي كان في عصره، بل نقرأ الواقع، لأنّ التعقيدات التي كانت في عصره والتي واجهته هي نفسها التعقيدات التي نواجهها في عصرنا الآن، ولذلك فعلينا أن نقرأ نصّ الإمام علي عليه السلام كما لو أنّه كان حاضراً بيننا ويخاطبنا كما كان يخاطب أولئك.

يقول الإمام عليّ عليه السلام: «**ألا وإنّكم قد نفضتم أيديكم من حبل الطاعة**» وهو يشير إلى الانحراف والتمرّد الذي كان المسلمون في عهده يأخذون به، فلا يلتزمون الإسلام في صفائه ونقائه، بل يتحرّكون انطلاقاً من الأوضاع المعقّدة التي كانت تحكم ذلك المجتمع وتسيطر على علاقاته وانتماءاته.. «**ألا وإنّكم قد نفضتم أيديكم من حبل الطاعة**» فتركتموه.. «**وثلمتم حصن الله المضروب عليكم بأحكام الجاهلية**» ويقصد من كلمة (حصن الله) هو الإسلام، فإنّ الله سبحانه وتعالى جعل الإسلام

حصناً للناس يتحرّكون بداخله ليحميهم من كلّ التيارات المضادَّة التي يمكن أن تنفذ إلى المجتمع لتمزّق وحدته وتُسقِط قيمه ومواقعها، لأنّ قيمة الحصن هو هذا التماسك بين أجزائه، بحيث لا يكون فيه أيّة ثغرة، ولا يكون فيه أيّ خلل يمكن أن ينفذ منه الأعداء، ولكن عندما أخذ القوم بأحكام الجاهلية في عصبيّاتهم وفي تحرّكاتهم على أساس أهوائهم، أو نتيجة لإيقاع المستكبرين بهم، وابتعادهم عن خطّ الاعتصام بحبل الله، فإنّهم ثلموا هذا الحصن وأحدثوا فيه ثغرة دخلت إليه بعض الجاهلية على مستوى المجتمع، حيث يشير الإمام عليه السلام كما سيأتي إلى حالة التمزّق والتمرّد وعدم التوازن والاستقامة في خطّ الإسلام بدل أن يجعله المسلمون القاعدة التي ينطلقون منها ويرتكزون عليها.

«**فإنّ الله سبحانه قد امتنّ على جماعة هذه الأمّة فيما عقد بينهم من حبل الألفة التي ينتقلون في ظلها ويأوون إلى كنفها بنعمة لا يعرف أحد من المخلوقين لها قيمة، لأنّها أرجح من كلّ ثمن**» يدفع «**وأجلّ من كلّ خطر**» كبير.. وفي هذا إشارة إلى هذه النعمة الإلهيّة في تحوّل تلك المجتمعات التي كانت تتحرّك في خطّ العداوة والبغضاء، إلى التحرّك في خطّ المحبّة والصداقة والأُلفة، وهذا ما عبّر عنه سبحانه وتعالى بقوله: **﴿وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ الله جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ الله عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِه لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾** [آل عمران: ١٠٣]، وقد حدّث الله سبحانه وتعالى مخاطباً رسوله صلى الله عليه وآله وسلم: **﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾** [الأنفال: ٦٣] يعني أنّه منحهم هذه النّعمة بلطفه ورحمته.

الحديث عن واقع الأمّة

ثمَّ بدأ الإمام عليه السلام يتحدّث عن واقع الأمّة الذي وصلت إليه بقوله عليه السلام: «**واعلموا أنّكم صرتم بعد الهجرة أعراباً**». وهنا لا بدّ أن نتوقّف عند هذه الكلمة، وهي علاقة الهجرة بواقع الأعراب. فهذه المسألة، وبحسب ما يُستفاد من الآيات الكريمة، هي أن النبيّ صلى الله عليه وآله بعد الهجرة إلى المدينة دعا كلّ من آمن به إلى أن يهاجروا معه وأن يخرجوا من مجتمع الكفر والشرك إلى مجتمع الإسلام، معتبراً أن لا ولاية بين الذين آمنوا ولم يهاجروا، وبين المسلمين، وذلك لأنّ النبيّ صلى الله عليه وآله كان يريد إنشاء المجتمع الرساليّ المثقَّف بثقافة الإسلام، لأنّ ظروفه صلى الله عليه وآله في مكّة كانت قاسية بحيث لم يستطع معها أن يقوم بتنفيذ خطّته بتثقيف المسلمين المؤمنين الذين دخلوا الإسلام، لأنّ قريشاً لم تترك للنبيّ صلى الله عليه وآله الفرصة الواسعة للتبليغ ولتلاوة القرآن، فقد كانوا يمنعون الناس من الاجتماع إليه ليستمعوا إليه ويتثقّفوا، وكانوا إذا رأوا أناساً يجتمعون حول النبيّ صلى الله عليه وآله وهو يقرأ عليهم القرآن، يقولون ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ**﴾ [فصلت: ٢٦]، يعني أثيروا الضجيج والضوضاء حتّى لا يسمع أحدٌ النبيَّ صلى الله عليه وآله..

وهكذا عرفنا كيف اضطُّهد المسلمون في مكّة، ولماذا هاجروا إلى الحبشة، لأنّه لم يكن هناك أيَّة فرصة للنبيّ صلى الله عليه وآله ليصنع مجتمعاً مثقّفاً بالفكر الإسلامي وبأحكام القرآن وما إلى ذلك.. فالنبيّ صلى الله عليه وآله كان يريد تأسيس المجتمع الرساليّ المسلم الذي يحمل الرسالة من موقع علمٍ وعقلٍ وفكر، فلا يكتفي بأن يدخل الإنسان في الإسلام ويمارس بعض عباداته، بل كان صلى الله عليه وآله يريد أن يصنع دُعاةً للإسلام، وأن يصنع قيادات رساليّة إسلاميّة، ولذلك لم يُرِد للمسلمين الذين آمنوا به في مكّة أن يبقوا هناك،

لأنّهم - عندئذٍ - ينفصلون عن قاعدة الرسالة، ولا يملكون أيّة فرصة لزيادة إيمانهم وتثبيت إسلامهم ومعرفتهم بالإسلام، بل يبقون تحت رحمة المشركين، وربّما يتراجع إسلامهم بفعل انقطاع المدد الثقافي عنهم، وبفعل ابتعادهم عن الأجواء الروحية التي يمكن أن يعيشوها لو كانوا في المدينة مع النبيّ ﷺ. ولذلك فقد حذّر النبيّ ﷺ الذين آمنوا ولم يهاجروا بأنّ ليس هناك من ولاية بينهم وبين المسلمين الذين هاجروا. لذلك فإنّ الهجرة لا تُمثِّل مجرَّد انتقال من مكّة إلى المدينة، بل كانت تُمثِّل رحلةً إلى الموقع الإسلاميّ، تمنح المسلم نموّاً في عقليّته، وحركةً في عقله، وانفتاحاً في سلوكه وعلاقاته، ليكون الإنسان الذي يمكن أن يحمل الدعوة الإسلامية.

الأخذ بأسباب العلم

وقد أكّد الإسلام بعد ذلك أنّ على المسلمين الأخذ بأسباب العلم ﴿**قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ**﴾ [الزمر: ٩]، ﴿**وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً**﴾ [طه: ١١٤]، حتى إنّه عندما تحدّث عن المشركين، فقد تحدّث عنهم بصفة كونهم لا يعلمون ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ لَوْلاَ يُكَلِّمُنَا اللهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ**﴾ [البقرة: ١١٨].. لذلك فإنّ الهجرة تتحرَّك في إطار اجتماع المسلمين حول الرسول ﷺ ليستمعوا إليه في خطابه ومواعظه وهو يتلو عليهم القرآن ﴿**لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ**﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وكانوا يلتفّون حوله ليسألوه عن كلّ ما يسمعونه هنا وهناك من شبهات، وعن كلّ ما يدور في

أذهانهم من علامات الاستفهام حول أيّة قضية. ولذلك نشأ في المسلمين من أصحاب النبيّ ﷺ مَنْ أخذ بأسباب علم القرآن والإسلام، وأصبح هناك حَفَظَةٌ للقرآن قرّاء له، حتى قيل إنّه في حرب (اليمامة) قُتل سبعون من هؤلاء القرّاء، وقد اختصّ النبيّ ﷺ بتهيئة الإمام عليّ عليه السلام للقيادة المميّزة بما لم يختص به أحداً من المسلمين، ولذلك قال عليه السلام يصف هذا الاختصاص: «**علّمني رسول الله ﷺ ألف باب من العلم يفتح لي من كلّ باب ألف باب**». وقد رُوي عن النبي ﷺ قوله: «**أنا مدينة العلم وعليّ بابها**»، لأنّه هيّأ عليّاً عليه السلام للقيادة الثقافيّة والسياسيّة والروحيّة والإداريّة، باعتبار أن دوره يفرض ذلك كلّه.

إذاً، فكلمة الأعرابيّ بحسب المصطلح هو ذاك الذي لم يتفقّه في الدين، وهو الذي لم يتعلّم أحكام الإسلام، بل بقي على معلومات بسيطة سطحيّة لا تُغني الإنسان أو تدفعه لكي يفكّر ويدعو وما إلى ذلك.. وقد ورد الحديث عن الأعراب في القرآن ﴿**الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُواْ حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**﴾ [التوبة: ٩٧]، باعتبار أنّ هذه الفئة لا تعرف حدوده، لأنّها لم تتعلّم ولم تهاجر لتعرف حدود الله، لذلك دخلت في خطّ النفاق، وربّما اقتربت من خطّ الكفر، وقد تحدّث القرآن الكريم في موضع آخر عن الأعراب الذين كانوا يتحرّكون في الجانب السلبي حول المدينة ﴿**وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى النِّفَاقِ لاَ تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ**﴾ [التوبة: ١٠١]، وقد نزلت الآية في قبائل «أسلم» و«أشجع» و«جهينة»، ولكن القرآن الكريم لا يتحدّث عن الأعراب بشكل مطلق في الجانب السلبيّ هذا، لأنّه يتحدّث عن مجموعة أخرى من الأعراب أخذوا بطريقتهم الخاصّة

وبوسائلهم الخاصّة، الأسباب التي تعطيهم عمق الإيمان ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٩٩].

وفي هذه المسألة يشير الإمام علي عليه السلام بقوله مخاطباً المسلمين: «**أصبحتم بعد الهجرة أعراباً**» كأنّه يقول لهم إنّكم كنتم في عهد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بمثابة المهاجرين، لأنّكم تفقّهتم بالقرآن فيما جاء عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وعشتم تلك الأجواء، ولكنّكم انفصلتم ـ بعد ذلك ـ عنها عندما ابتعد الزمن بينكم وبين النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وبدأتم تتركون الأخذ بأسباب الروحانيّة، وتحوّلتم إلى جماعة من الناس لا تفقه في دينها شيئاً، لأنّها انفصلت عن أسباب العلم ولا تلتزم الخطوط المستقيمة في الدين وما إلى ذلك، خصوصاً من خلال هذه التعقيدات والمنازعات والخلافات والمؤامرات التي كانت تحدُث بين المسلمين نتيجة المتغيّرات التي حصلت في مجتمعهم حينذاك.

التاريخ يعيد نفسه

ونحن عندما ندرس واقع المسلمين الآن، فإنّنا نجد أنّ الخطاب الذي وجّهه الإمام عليّ عليه السلام لمن كان في عهده يمكن أن يُوجّه لكثير من المسلمين اليوم، لأنّهم لم يأخذوا بأسباب الثقافة الإسلاميّة، فتجد أنّ الثقافة الإسلاميّة مقتصرة على فريق من الناس، وهذا الفريق نفسه ربّما يختلف بمستواه الثقافي، بين من يأخذ من الثقافة ما يقوم على أساس التراث من دون الانفتاح على التطوّرات المعاصرة في أساليبها وفي وسائلها، وبين من يأخذ بالتراث وبما استجدّ، ولعلّ معظم المسلمين في

شغل عن إسلامهم، ولهذا رأيناهم يتّبعون خطوات الكفر ويأخذون بعناوينه وينتمون إلى مواقفه، باعتبار أنّهم لا يفهمون حدود المفاهيم الإسلامية بالدّقة المطلوبة.

وعلى ضوء هذا، فقد يأخذون بعض مفاهيم الكفر بما يُخيَّل إليهم فيه أنّها من الإسلام، بهذا نجد كيف نَفَذَ الكثير من المفاهيم الغربيّة إلى وجدان المسلمين باعتبار أنّهم لم يعرفوا الفواصل بين ما هو إسلاميّ بقواعده ومفاهيمه وبين ما هو الكفر بقواعده ومفاهيمه، وهكذا رأينا أنّ جهل المسلمين بإسلامهم تطوّر إلى ابتعاد المسلمين عن الإسلام، فلا نجد هناك ثقافة إسلامية واسعة عند أكثريّة المسلمين في العالم.

ولذا، فإنّ ما تحدّث عنه الإمام عليّ عليه السلام في عصره، لعلّه ينطبق على كثير من المسلمين في هذا العصر.. وأودُّ أن أنبّه إلى نقطة أخذت عنواناً في الأحكام الشرعيّة الإسلاميّة، وهي مسألة التعرّب بعد الهجرة، وهي من الأمور المحرّمة شرعاً. والمقصود من التعرّب بعد الهجرة هو أن يسافر الإنسان المسلم من غير حاجة ومن غير ضرورة من بلاد الإسلام، حيث يعيش أجواء الإسلام ومناخه وأهدافه ووسائله، إلى بلاد الكفر حيث لا تتوفّر لديه الأجواء الإسلاميّة ولا تتوفّر لديه أسباب الثقافة الإسلامية وما إلى ذلك، فيفقد الإنسان إيمانه تدريجياً بنسبة معيّنة وحسب اختلاف ظروفه، وهو إنْ مَلَكَ نفسه فإنّه سيفقد أولاده الذين يدرسون في مدارس الكفر وأجوائه، بل إنّه لا يملك أن يربح أولاده أو يؤثّر عليهم. ففي هذه الحالة، فإنّ الهجرة إلى بلاد الغرب قد تُعتبر في كثير من الحالات من التعرّب بعد الهجرة، ولكن يمكن، كما كنا نقول للمغتربين عن بلادهم، خصوصاً ﴿**الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ**﴾

[الحج:٤٠]، أو الذين اضطُّهدوا هنا وهناك، إنّ من الواجب أن تفتحوا مدارس إسلاميّة وتعملوا على إيجاد المراكز الإسلامية الثقافية والعبادية وما إلى ذلك، لأنّ هذا هو الشرط الموضوعيّ لأجل حلّية بقائكم هناك بالنسبة إليكم وبالنسبة إلى أولادكم، فنحن نطمع الآن أن نحوِّل بلاد الغرب إلى بلاد إسلاميّة، ولا يكفي أن يتواجد فيها المسلمون من دون الإسلام لمجرّد انتمائهم إلى الإسلام، بل أن يُكوِّنوا مجتمعاً إسلامياً، وأن يعملوا على أساس تقوية المواقع الإسلامية ودعوة الآخرين إلى الإسلام.

من الوحدة إلى التمزّق

«**وبعد الموالاة أحزاباً**» والنقطة الثانية التي يركِّز عليها الإمام علي عليه السلام هي التحزّب بعد الوحدة، فالموالاة كناية عن المجتمع الذي يوالي بعضه بعضاً، كما في قوله تعالى: ﴿**وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَـئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللهُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾ [التوبة: ٧١]، فالعلاقة الإسلاميّة هي علاقة ولاية بين المسلمين، إذ كلُّ مؤمن أو مؤمنة، ومسلم أو مسلمة، يعملون على أساس الموالاة للمسلمين الآخرين، لأنَّهم يشعرون بأنّهم أمّة واحدة، وأنّهم يمثّلون خطّاً واحداً، ويتحرّكون نحو هدف واحد، ويعيشون مسؤولية واحدة، وهو أن تكون كلمة اللّه هي العليا وأن تكون كلمة الشيطان هي السُّفلى. فهذا هو الذي أراده اللّه سبحانه وتعالى بقوله: ﴿**وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ**﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وهذه هي المسألة الإسلامية التي أكدَّ عليها النبي صلى الله عليه وآله وسلم بقوله: «**مَثَلُ المؤمنين في توادهم وتراحمهم كَمَثَلِ الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له**

سائر الجسد بالسهر والحمى» (بحار الأنوار، ج٢٧، ص٢٢، ب١، ح٥)، وهكذا بقوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**﴾ [الحجرات: ١٠].

فالموالاة تمثِّل حالة الوحدة بين المسلمين، والمودّة والرحمة التي تقتضي التعاون وتفرض الإحساس الواحد، لأنّهم أمّة واحدة وليسوا فِرَقاً متناثرة، وحتّى لو اختلفوا في بعض الأمور والاجتهادات، فإنّ ذلك لا يمنع وحدتهم على الأسس التي يلتقون عليها، ولكنّهم تحوّلوا إلى أحزاب وفِرَقٍ متباعدة ومتناثرة، وكلٌّ منهم يفكّر بدائرته الخاصّة بعيداً عن الدائرة الأخرى، وربّما يكفِّر بعض المسلمين بعضاً، وربّما يحارب بعضهم بعضاً على أساس العصبيّات المذهبيّة والطائفيّة السياسيّة وما إلى ذلك، ما جعل المسلمين يتوزَّعون فِرَقاً فِرَقاً، بحيث لا تجمع بينهم كلمة الله لتتحوّل بهم إلى عمق في الواقع وفي العلاقات. ولذلك فقد ركّز الإسلام على سلبية هذه الحزبية التي كانت موجودة في الجاهلية بقوله تعالى: ﴿**فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُراً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ**﴾ [المؤمنون: ٥٣]، يعني بها الحزبيّة القائمة على العصبيّة التي تتحرّك من خلال انفصال المجتمع عن بعضه البعض، بحيث يتحوّل المجتمع الواحد الذي يملك انتماءً واحداً وعنواناً واحداً إلى مجتمعات متعدّدة، كلٌّ منها يستغرق بذاته، وكما قال الشاعر:

وتفرّقوا شيعاً، فكلّ قبيلة   فيها أمير المؤمنين ومنبر

بحيث أصبحت القيادات متعدّدة بدلاً من القيادة الواحدة الموحَّدة، مع أنّه لا مانع في الإسلام من أن تكون هناك عدّة تنظيمات قد تختلف في بعض الوسائل والأساليب، ولكن لا بدّ أن يكون هناك اتّفاق على القاعدة التي ينطلقون منها، بحيث لا يختلفون على الإسلام، بل يتحاورون فيما

بينهم، وإذا تنازعوا في شيء فإنّهم يردّونه إلى الله والرسول. ولذلك فالحزبيّة هنا تعني العصبيّة والاستغراق في الذّات أو العشيرة أو الطائفة وما إلى ذلك، ممّا يفصل المسلمين عن بعضهم البعض ويعتبر كلاً منهم غريباً عن الآخر، وهذا ما لاحظناه عند تقسيم البلاد الإسلاميّة إلى أقطار متعدّدة من قِبَل الاستعمار، فقد جعل لكلّ قُطْر من هذه الأقطار كياناً منفصلاً عن الأقطار الإسلامية الأخرى، بحيث إنّه يعتبر المسلم في هذا البلد الذي لا يحمل جنسيّة هذا البلد غريباً عنه، لأنّه من جنسيّة أخرى وإن كانوا يلتقون في الإسلام، وهذا ما أوجب تحوّل المسلمين إلى مجتمعات متعدّدة متناحرة متشتّتة تتحرّك على أساس ذاتيّتها ولا تتحرّك على أساس إسلاميّتها.

فلذلك، لابدّ لنا ـ أيّها الأحبّة ـ عندما نرى ظاهرة الحزبيّة في بلادنا، ولاسيّما الأحزاب الإسلاميّة التي تتعدّد في مواقعها، كلّ واحد منها عنوانه الإسلام، ومع ذلك فإنّهم لا يلتقون على أساس الوحدة الإسلاميّة، بل كلّ واحد منهم يعتبر نفسه أنّه يمثّل الإسلام دون الآخرين، لذلك لو اطّلع كلّ واحد منهم على عمق ذاته، لرأى أنَّ القضيّة هي ليست في الإسلام هنا والإسلام هناك، ولكنّ الغالب أن تكون القضيّة هي زعامة هنا وزعامة هناك، وخلفيات هنا وهناك، لذلك نريد للأحزاب الإسلامية في العالم الإسلامي كلّه أن تلتقي على الإسلام، وإنْ اختلفت في بعض الخطوط أو التشريعات الإسلامية، فإنّ عليها التحاور فيما بينها كما أراد الله ﴿**فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ**﴾ [النساء: ٥٩].

ويمضي الإمام علي عليه السلام في حديثه فيقول: «**ما تتعلّقون من الإسلام إلا باسمه**» (نهج البلاغة لأمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام :

الخطبة رقم ٢٣٤ الخطبة القاصعة. ص٢٩٨-٢٩٩)، يعني تحملون الانتماء الإسلاميّ مجرَّد عنوان ومجرَّد شيء له عنوان، ولكنّه ليس شيئاً في العمق، فتعرفون الصلاة كباقي الطقوس، أما الإيمان في عمقه العقائدي والشرعي والمفاهيمي وما إلى ذلك، فإنّكم لا تعرفونه، وهذا هو الواقع الذي صوَّره الإمام علي عليه السلام في عصره، وكما قلنا، فإنّنا نستطيع القول إنّ عصرنا الحالي يعاني ذلك المرض.

ثالثاً

السيرة النبوية: إشكالية النصّ ومنهج الدراسة

لم يكن العمل الإسلاميّ بِدْعاً من الأعمال... لنبحث له عن جذور جديدة، أو بالأحرى، لنغرس له جذوره في أعماق الحياة، بل هو امتداد للعمل الرساليّ، جذوره متأصّلة في غور التاريخ، بحيث يختزن في داخله حركيّة الرسالات والنبوّات الغنية بالتجارب العملية في مجال الدّعوة، أسلوباً وحركة وجهاداً وتضحية في سبيل الله، كما يستمدّ حركيّته من الرسالة الإسلاميّة المنطلقة في حياة النبيّ محمَّد ﷺ في رسالته وجهاده وتضحيته وطريقته في الحياة وفي أسلوب العمل وطريقة التبليغ من حياة الأئمّة والصحابة والمجاهدين والعلماء العاملين والدُّعاة المسلمين في كلّ زمان ومكان.

وإذا كان للعمل الإسلاميّ هذه الجذور الدينيّة العميقة المتأصّلة في أعماق التاريخ، فلا بُدَّ لنا أن نلتفت إلى كلّ التجارب الماضية في مجال الحركات الرسالية، بأن لا نُغفِل ما رافقها من نكسات وانتصارات، وما أعقبها من أرباح وخسائر، وما طرأ عليها من مفاهيم موافقة للخطّ الرسالي أو مخالفة له.. وما حدث فيها من انقسامات على أساس اختلاف الفكر، أو اختلاف الموقف، أو اختلاف المصالح والأطماع.. لما لذلك

كلّه من تأثير على طبيعة العمل في إطار الفكرة أو على طبيعة الحركة أو إطار الأسلوب أو على طريقة الممارسة في نطاق التطبيق، باعتبار أنَّ ذلك يمثّل بعضاً من ثقافة أفراد الأمّة بانتماءاتها ورواسبها المختفية - في اللاشعور - التي تترك بصماتها على حركة العمل المعاصر تبعاً لخضوع الإنسان المسلم لتلك التأثيرات، كما أنَّه يرسم الفكرة الدينيّة وصورتها في وعي النّاس وفكرهم، وربَّما يولِّد لهم مشاعر قد تأتي أحياناً متناقضة تبعاً لتناقض الصّور التاريخيّة للتجارب الدينيّة المتنوّعة، ما يسمح لهم بتحديد مواقفهم الإيجابيّة والسلبيّة على هذا الأساس.

وقد يمتدّ في عمق الفكرة وشموليّتها، فيغنيها بالحياة تارةً من خلال اتّجاهٍ أو تفسيرٍ أو تجربةٍ حيّة، ويُفقرها تارةً أخرى من خلال الاتجاهات التي لا تملك الغنى الروحيّ في المعاني الحيّة للحياة، وقد يجمّدها في بعض المفاهيم والأفكار ويحرّكها في بعض آخر.. وربَّما يعزلها عن الأمّة في جانب أو يُدخلها في جانب آخر إلى صميم حياتها. وهكذا يبقى للتاريخ الرسالي بكلّ جوانبه المشرقة والمظلمة دوره الكبير في حركة الرسالة وامتدادها في نطاق الحاضر والمستقبل.

الاستفادة من التاريخ وطُرق الارتباط به

وهنا يكمن السؤال: كيف نواجه التاريخ، وكيف نرتبط به؟ وكيف نستفيد من تجاربه..؟

ولكن قبل ذلك لا بُدَّ لنا من استعراض الأساليب والطُّرق التي نعالج فيها ذلك التاريخ للاستفادة منها في فهم قضاياه.

من الملاحظ أنَّنا ندرس التاريخ بشكل تقريريّ جامد، ينقل القصّة من خلال استيحاء قداسة الرسول لا قداسة الرسالة، أو بالأحرى من خلال شخصيّة صاحب الدعوة، دون التفات إلى حركة الرسالة في حركته وشخصيّته؛ ومن هذا المنطلق تبدأ دراسة تاريخ الرسول ﷺ كسيرة ذاتيّة للرجل لا للرسول تصل إلى حدٍّ تُمثّل فيه الرسالة - عن طريق العرض - حدثاً من أحداث حياته الخاصّة، أمّا أخلاقه وأساليبه في العمل فهي من مميّزاته الفريدة التي لا يمكن لأحد أن يبلغ شأوها أو يقترب من مستواها، فلذا لا مجال لدى هذا الاتّجاه للاحتجاج على تأسّي المسلمين بأخلاق النبيّ وأعماله، لأنَّ تلك المميّزات من خصائصه الذاتية وليست ميزة إسلامية يمكن للمسلمين أن يقتدوا بها في حياتهم العامّة للتدرّج في مدارج الكمال.

وقد شارك هذا الاتّجاه في تركيز العلاقة بين الأنبياء وأتباعهم على أساس شخصيّ، ما جعل التقديس الروحيّ يتّجه إلى الأشخاص أكثر ممّا يتّجه إلى الرسالة.. فنراهم ينصرفون إلى ممارسة الطقوس التي تمثّل الإخلاص للنبيّ، والاحتفال بذكراه وزيارة قبره، بينما لا نجد مثل هذا الاهتمام بممارساتهم لواجبات الرسالة وطقوسها والتزاماتها.. وقد تدرّج هذا الوضع إلى مرحلة إنشاء نوع من أنواع المدح النبويّ الذي يتغزّل فيه المادح بحُسن النبيّ وجماله ويقف ليثبت فيه وَجْدَه ولوعته وشوقه تماماً كما يتغزّل أيُّ حبيبٍ بحبيبه.

التوازن بين حبّ الرسول وحبّ الرسالة

هذه الأجواء توجِد نوعاً من الانفصام وعدم التوازن بين حبّ النبيّ

الشخص وحبّ النبيّ الرسول و حبّ النبيّ الرسالة من جهة أخرى، لأنَّك لا تشعر بالرّسالة في هذه الأجواء إلاَّ من خلال الجانب الذاتيّ الذي يثير الحبّ المنفصل عن حبّ الرسالة.

وبتعبير آخر، إنَّ هذا الأسلوب التقريري التقليديّ في فهم علاقاتنا بالرسول هو الذي أدّى إلى هذه النتائج الفكرية أو العملية.. لأنَّنا لم نشعر بالرسالة وهي تتحرّك في مراحل القصّة وأدوارها، بل كان كلّ شعورنا يتركّز على الرسول، وهو يتحرّك، فتتحرّك الرسالة من خلاله، لتفهم تبعاً لفهمه، وهذا ما نتحفّظ فيه، ونرفضه انطلاقاً من منهج القرآن الكريم الذي كان يتحدّث عن الرسول من خلال الرسالة، سواء في أخلاقه أو محاوراته، في حربه وسلمه، وفي علاقاته بالنّاس وبأهل بيته وأزواجه.. ثمَّ أطلق الفكرة الإسلامية الواضحة التي تدفع المسلمين إلى الانتماء إلى النبيّ من خلال صفته الرسالية، ليكون الانتماء إلى الرسالة بالذات، وذلك في قوله تعالى:

﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾ [الأحزاب: ٤٠].

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىَ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

وهكذا نجد أنَّ القرآن عندما يتحدّث عن الأنبياء الذين تقدّموا على النبيّ ﷺ في الزمان، ينطلق من الفكرة التي لا تُخرجهم من إطار البشرية ـ إلاَّ في نطاق الرسالة وارتباطهم المباشر باللّه من طريق الوحي ـ

فيمرّون في حياة النّاس مروراً خفيفاً، بحيث تبقى الرسالة وتخلد، أما هم فسيموتون كما يموت سائر النّاس، وهذا ما جعلهم يعملون لتحقيق ارتباط النّاس بالرسالة، فلم يتحدّثوا عن أنفسهم إلاَّ من خلالها، كما جرت عادة البعض ولو في كلمة أو إشارة عمل ليستحدثوها بعدهم من دون أن يكون لهم دخل في ذلك.

وقد نجد ذلك في الآيات التي تتحدّث عن حوار نوح عليه السلام مع قومه.. حيث نلاحظ أنَّه وقف أمامهم وقفة الرسول الناصح الأمين الذي يبلّغهم رسالات ربِّه ولا يملك لنفسه أيّ شيءٍ خارج هذا الإطار، ولا يستطيع أن يغيّر أو يبدّل في مهمته وفي التعليمات الموجهة إليه، لأنَّه يخاف من المسؤولية ومن العقاب تماماً كأيّ مسؤولٍ آخر يتجاوز حدود مسؤوليّته أو يتمرّد عليها..

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَن لاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ اللهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ * فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ * قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّيَ وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ * وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللهِ وَمَا أَنَاْ بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّهُم مُّلاَقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ * وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ * وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللهِ وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلاَ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلاَ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللهُ خَيْراً اللهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذاً لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [هود:٢٥ ـ ٣١].

نلاحظ من خلال هذه الآيات أنَّ نوحاً لم يحاول أن يربط النّاس بذاته من خلال أيّ شيء غير عاديّ، بل حاول أن يُبعدهم عن احتمال أيّ شيءٍ من هذا القبيل، ممّا اعتاد النّاس أن يظنّوه أو يرغبوه أو يزعموه للأنبياء من قوّة خارقة مادّيّة وروحيّة.. ثمَّ انطلق يدافع عن موقفه من أتباعه الفقراء، من موقع الرسالة التي تحترم أتباعها، ومن مركز الرّسول الذي لا يخذل المؤمنين، بل من الموقع الذي يخشى فيه الله، ولا يخشى من القوى المسيطرة في المجتمع.

وإذا اتّبعنا حديث القرآن الكريم عن الأنبياء لوجدنا أنَّه ينطلق من نفس الفكرة ونفس الرّوح ونفس الأسلوب.

وعلى ضوء هذا نبدأ الجواب عن السّؤال: كيف نواجه ذلك التاريخ؟! فقد نجد أنَّنا نواجهه كتاريخ للرسالة التي نحملها، من حيث تجسيده للتجارب الأولى في حركتها الصّاعدة، وهذا ما يوجب علينا أن ندرسه دراسة متأنّية تنطلق من روحيّته الهادفة إلى استلهام تجاربه الناجحة، في تجاربنا العمليّة، وأن نستوحي من خطواته المتعثّرة ما يجنّبنا الوقوع في عثرات الخطوات المماثلة، مع استبعاد القضايا التي تخضع لحدود الزمان والمكان، فلا تمتدّ إلى غير مرحلتها الزمانيّة، ولا تتّسع لغير ظروفها المكانية.. وبتعبير آخر، لنأخذ النتائج العامّة الشاملة التي تحتضن كلّ تطوّرات الحياة، بعناصرها الأساسيّة غير الخاضعة لقوانين التغيّر والزوال، لأنَّها تخاطب الإنسان في حدود إنسانيّته وجوهرها الأصيل. وفي ضوء ذلك، لا تعود شخصيّة النبيّ في نطاق التاريخ مجرّد شخصيّة تاريخيّة مقدّسة نتعاطف معها في خشوع كما يتعاطف الإنسان مع مقدّساته في غيبوبة صوفيّة غائمة، تجترّ الألفاظ والعواطف والمعاني

التقليدية بشكل تقليديٍّ مملٍّ.. بل تعود شخصيّة النبيّ إلى وعينا، لتمثّل دور القوّة الفاعلة المحرّكة للرسالة في حركة التاريخ، فتكون صلتنا بها صلة رساليّة، سواء في الجوانب الفكريّة أو الشعوريّة.

وتشمل دراسة التجربة النبويّة، في هذا المجال، عناصر النجاح في شخصيّة النبيّ الداعية، من حيث هي عناصر لنجاح الدعوة ودراسة عناصر الفشل، في طبيعة الواقع الموضوعي الذي يحيط بالتجربة ويشكّل عقبات أمام تقدّم الدعوة ونموّها. كما ينبغي دراسة أساليب الدّعوة، وطريقة العمل، ونوعية الحركة وما تشتمل عليه من إيجابيّات وسلبيّات، مع الالتفات إلى التنوّع في المؤثّرات التي تحكم الأسلوب العملي في التجربة، وذلك عن طريق استبعاد المؤثّرات الآنيّة المنبثقة عن الظروف الموضعية المحدودة، واستبقاء المؤثّرات المنطلقة من طبيعة الدّعوة، ثمَّ دراسة ردود الفعل الناتجة عنها... ومدى تأثيرها على سَير الدعوة في داخل وخارج المناطق التي تحرّكت فيها... وفي انعكاس النجاح والفشل على شخصيّة أتباع الدعوة وأعدائها، وعلى امتدادها إلى خارج حدود الزمان في أجيال جديدة ومواقع متقدّمة.

الصبر والصمود في التجربة النبويّة

وقد ينبغي لنا التأكيد في هذا المجال على جانب الصمود والصبر في التجربة النبويّة، من خلال تصوّر الأوضاع الصعبة والظروف القاسية، وألوان العذاب والاضطهاد والتنكيل، وما استُخدم من أساليب الحرب النفسيّة التي تمثّلت بالسّخرية والاستهزاء والتخويف والتهويل.. وغير ذلك من الأمور التي اتّبعها الطغاة ضدّ الأنبياء وأتباعهم.

قد نخرج من التأكيد على هذا الجانب والإفاضة فيه بفوائد ثلاث:

الأولى: التركيز على قيمة الدِّين في إغناء المؤمنين بالرصيد الروحيّ الكبير المتّصل باللّه، الذي يمدّهم بالقوّة ويشحنهم بالقدرة على مجابهة مواقف الاضطهاد بالصبر الهادئ والنفس المطمئنّة، كما أنَّه يرتقي بالمشاعر فوق حدود المأساة، فلا يتجمّدون عندها، بل تمتلئ قلوبهم بالرضا وعيونهم بالفرح الروحي ومواقفهم بالإصرار على تحويل المأساة في واقعهم الذاتيّ إلى تجربة تتحرّك لمنع حدوث المأساة في حياة الآخرين.

الثانية: الإيحاء للدُّعاة المسلمين بواقعية المواقف الصامدة الصابرة، وقدرتها على تحقيق النتائج الإيجابية في نهاية المطاف على أساسٍ من التجربة والإيمان.

الثالثة: إغناء التاريخ الرساليّ الحركيّ بالأبطال في حركة النبوات، سواء ما يتمثّل منه في بطولات الأنبياء أو في تلك التي قام بها أتباعهم من المؤمنين.

إنَّنا نشعر بالحاجة الملحّة إلى الأبطال التاريخيّين الذين يمتزج فيهم جانب البطولة بجانب القداسة، أو الذين تجتمع فيهم معاني البطولة ومواقف التضحية في نطاق العقيدة، لئلّا نحتاج إلى استعارة أسماء أبطال آخرين لا يمثّلون خطّ الرسالة ـ في أساليبنا التربوية التي تعتمد في بعض مجالاتها على أسماء الأبطال، ومواقف البطولات ـ ليجتمع للأمّة عنصر القدوة إلى جانب عنصر الفكرة.

أهداف القصّة في القرآن

وقد كان من بين أهداف القصّة التي درج القرآن الكريم على استعراضها تثبيت النبيّ والذين آمنوا معه على ما كانوا يلاقونه من العذاب والاضطهاد والحرب النفسية، ليجدوا من خلال ذلك الواقع، العزاء والأمل بالنصر التاريخيّ من جهة، ولينفتحوا على ما في الإيمان بالله من غنى روحيّ يبعث الحياة والطمأنينة والسكينة في قلوب المؤمنين من جهة أخرى. كما نجده في الآيات التالية:

﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأنعام: ١٠].

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللّهِ يَجْحَدُونَ * وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَى مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ وَلَقدْ جَاءكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ * وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِي السَّمَاء فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٣ ـ ٣٥].

﴿وَكُـلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءكَ فِي هَـذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠].

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ * وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ * وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [الحج: ٤٢-٤٤].

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِياً وَنَصِيراً﴾ [الفرقان: ٣١]

﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ * وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون﴾ [الزخرف:٦].

﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً * وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيماً * رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾ [النساء:١٦٣ ـ ١٦٥].

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شَاء رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام:١١٢].

يستعرض القرآن الكريم في هذه الآيات أساليب الاستهزاء والإيذاء والتكذيب، التي قُوبل بها الأنبياء السّابقون من قِبَل شياطين الإنس والجنّ، فكانت مواقفهم تمثّل الصبر والصمود، حتى جاءهم النصر من عند اللّه.. لتوحي للنبيّ أوّلاً، بأنَّ عليه أن يكون امتداداً لهذا التاريخ العظيم، وإلاَّ فليحاول أن يبتغي نفقاً في الأرض أو سلَّماً في السماء، لأنَّ ذلك هو سنّة اللّه في الحياة في رسالاته وفي رسله ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتُ اللهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتُ اللهِ تَحْوِيلاً﴾ [فاطر: ٤٣] فلا رساليّة إلاَّ بالجهاد ولا جهاد إلاَّ بالصّبر.

ولعلّنا نخلص ـ من خلال هذا العرض الطويل ـ إلى النتيجة العمليّة في

الدراسات الدينيّة التي يحتاج إليها الداعية في ثقافته الذاتيّة، وفيما يقدّم للآخرين من عطاء ثقافيّ إسلاميّ يستهدف ربط حركة الدين الحاضرة بالحركة الدينيّة الممتدّة في أعماق التاريخ... وهذا ما تجسّد في قصص النبيّين كتجربة للدعوة وكمنطلق للحركة وكموقف للتنفيذ... وإجراء مقارنة واعية بين واقع الرسالات في تصوير القرآن لها بالصورة الدقيقة المشرّفة، وبين ما أضيف إليه من تزوير وتشويه وتزييف، في التاريخ الموضوع الذي أريد له أن يقدّم لنا الصورة المشوّهة القاتمة لحركة الرسالات ولشخصيّة الرسل..

إنّنا نؤكّد على هذا الجانب الثقافيّ من دراساتنا الدينيّة، لأنّه يُمثّل أحد العناصر الحيّة لبناء الشخصيّة الثقافيّة الدينيّة، فيما تملكه من انطباعات، وفيما تحمله من تصوّرات، وفيما تؤمن به من تفاصيل العقيدة.

وقد يبدو للبعض من النّاس، أنَّ هذا الجانب القصصيّ لا يرتبط بنا بشكل مباشر، لأنَّ علاقاتنا بالأنبياء السّابقين والإيمان بهم إنَّما تقتصر على مستوى أخذ العلم والخبر بوجودهم وبرسالاتهم من دون أن يكون لذلك أثر عملي في حياتنا العامة والخاصة، لأنَّ علاقاتنا الرسالية بهم - حسب رأيهم - تبدأ وتنتهي بالنبيّ محمَّد ﷺ وبرسالته وشريعته، فهي المنطلق الوحيد لنا من ناحية فكرية، وهي المصدر الأساسيّ من الناحية التشريعية.

ولكنَّنا نرفض هذه الفكرة، لأنَّ القرآن الكريم قد أكّد على وحدة الرّسالات، كما أكّد على وحدة الإيمان بالرسل، كما يشهد به قوله تعالى:

﴿قُولُواْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ

وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦].

وبهذا فإنَّ المسلمين يتبنّون كلّ ما جاء به الأنبياء ممّا حدّثنا عنه القرآن الكريم والسنّة الصحيحة، إلاَّ ما ثبت نسخه لارتباطه بظروف موضوعيّة محدودة بزمان ومكان معيّنَين، لأنَّ الإسلام يتبنّى ذلك ويزيد عليه انسجاماً مع كلمة النبيّ محمَّد ﷺ: **«إنَّما بُعثتُ لأتمّم مكارم الأخلاق»**.

وقد عرفنا من خلال الحديث المتقدّم السرّ الذي يربط الحركة الدينيّة المعاصرة بحركة الدّين في التاريخ... الأمر الذي يجعل من الخطأ في فهم هذا التاريخ، انحرافاً في فهم الإسلام، ومن النقص في هذا الجانب الثقافيّ نقصاً في الثقافة الإسلاميّة لدى الداعية المسلم في المضمون والأسلوب.. هذا في تاريخ التجارب الرساليّة الدينيّة من وجهة عامّة.

التاريخ الإسلاميّ والتجربة النبوية

أمّا قصّة التاريخ الإسلاميّ والتجربة الإسلاميّة النبويّة، وما يتفرّع عنها من تجارب الأئمّة والصحابة والتابعين، فإنَّ لنا منها موقفاً آخر، باعتبارها التجربة الأمّ لكلّ حركة إسلاميّة سابقة ولاحقة، والينبوع الصافي الذي يرتوي منه الظّامئون الذين يعانون من ظمأ المعرفة المُحرِق الذي يحسّ به كلّ من استقبل الحياة بدعوة الإسلام وواجه مشاكلها بحلوله، ما يجعل في كلّ مشكلة جديدة رغبة شديدة في معرفة طبيعة الحلّ، من خلال الينابيع الأولى، والجذور الثابتة في أعماق الأرض.

أمّا تجربة النبيّ محمَّد ﷺ بالذات فهي شريعة إسلاميّة، لأنَّ عمله رسالة ومصدر تشريعي، كما أنَّ قوله رسالة ومصدر للشريعة، انطلاقاً من الآية الكريمة التي تدعونا إلى التأسّي به والاقتداء بعمله: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيراً﴾ [الأحزاب: ٢١].

لقد جاء القرآن الكريم ليؤكّد لنا عمق هذه التجربة ودورها الكبير، فقد كان يرعاها ويوجّهها بالتأييد تارةً وبالنقد أخرى، وبالتوجيه الروحيّ والعمليّ في بعض المجالات، حتى تحوّل القرآن إلى وثيقة مقدّسة للتجربة الإسلاميّة الرائدة. وقد جاء في السيرة النبوية الشريفة أنَّ النبيّ كان يواجه المشاكل التي تحلّ بالمسلمين في شؤون الحرب والسلم... وكانت المشكلة تتفاعل في واقعهم حتى تتحوّل إلى قلق ينتظر كلمة النبيّ ﷺ الذي كان ينتظر كلمة الله.. وربَّما تمتدّ القضيّة إلى وقت غير قصير.. والنبيّ ينتظر والمسلمون ينتظرون، وربَّما يبدو من بعض المسلمين الرأي الذي يحلو للآخرين فيتحرّكون للتنفيذ، ويهّم النبيّ بموافقتهم على ما يريدون، فينزل الوحي بعد ذلك ليصحّح الخطأ الذي وقعوا فيه، أو يبارك الخطوة التي ساروا عليها وهكذا.

وبهذا كانت كلّ آية تتحدّث عن موقعة حرب أو واقعة سلم أو خلاف وقع بين المسلمين أنفسهم، أو بينهم وبين الكافرين، حتى أوضاع النبيّ العائلية ومشاكله الخاصة التي لها جانب كبير في القرآن، لأنَّها تمثّل تجربة إسلامية رائدة في السلوك العائلي للأسرة المسلمة في مسؤوليّة ربّ العائلة أمام أسرته ومسؤوليتهم أمامه.

وقد جاءت الآية الكريمة التي تردّ على سؤال أو اعتراض بعض النّاس حول السبب في نزول آيات متفرّقة وعدم نزوله دفعة واحدة ككتاب شامل.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾ [الفرقان: ٣٢].

قد نواجه في القرآن الكريم المواقف الحادّة الحاسمة التي كانت تواجه النبيّ والمسلمين، بحساب المسؤولية الدقيق فيما يأخذون وفيما يتركون، حتى إنَّك لا تشعر وأنت تقرأ الآيات الكريمة في هذا المجال بالأجواء الهادئة الساكنة التي تلف الواقع، بل تتفجّر أمامك الأجواء لتراقب بقلق واهتمام إمكانات الانحراف أمام حالات الضعف، فتبادرها بالتهديد والوعيد أو باللوم والعتاب أو بغير ذلك من الأساليب التي تنطلق من الله سبحانه وخطابه إلى النبيّ كإيحاء للأمّة.. ما يجعلك تعيش جوّ الدعوة وهي تتحرّك في نطاق المسؤولية، تماماً كأيّ داعية يقف أمام أيّ مسؤول، فيوحي إليك بأنَّ قصّة الرسالة لا تحتمل المجالات الشخصية والحسابات الذاتية، لأنَّها قضية الإنسانية التي لا يمكن أن تستجيب لأيّ انفعال عاطفي على حساب مصالحها الحيوية، مهما كانت الظروف والاعتبارات والأشخاص.

مجتمع النبيّ ﷺ في بدء الدعوة

وربَّما كان من القضايا التي يجب أن تشملها دراستنا.. طبيعة المجتمع الذي عاش فيه النبيّ في بدء الدعوة، وعقائده وثقافته وعلاقاته وطريقة مواجهته للأحداث، وأسلوبه في الجدال... لنستطيع فهم التجربة النبوية بشكل عميق مستوعب، ونفهم - إلى جانب ذلك - كيفية نقل هذه التجربة إلى حياتنا عند مواجهتنا المجتمع الذي نتحرّك فيه فيما إذا كانت الأوضاع

والمعطيات العامّة متوافقة في سلوك كِلا المجتمَعَين مع استبعاد المؤثّرات الخاصّة التي تحكم بعض الأساليب المطروحة في التجربة.

وربَّما تظهر قيمة هذه الدراسة، في تحديدنا الخطوط الفاصلة بين النظرية والتطبيق، فقد تنطلق التجربة في سلوك النبيّ من حيث هو مشرّع يرسم خطّاً عريضاً لا يخضع للحدود المعيّنة التي تحدّد الفكرة في إطار المناسبة، وقد تنطلق في سلوكه، من حيث هو داعية ينطلق في حركته من دراسة المبدأ والواقع في عملية تطبيقية تستمدّ عناصرها من الظروف والأوضاع الآنية المحيطة بالتجربة... وقد تتمثّل في التجربة سلوكيّة الحاكم الذي يتحرّك من خلال السلطة التنفيذية الممنوحة له من الله بما أراه من وجه الحقّ في القضية؟!

إنَّ علينا أن ندقّق كثيراً في هذه الجوانب عندما نريد أن نقرّر أيّ حكم أو مفهوم أو موقف على أساس التجربة، لئلا نقع في خطأ الخلط بين جهات انطلاق التجربة من حيث الصفات المتنوّعة التي تحكم شخصيّة النبيّ الذي اجتمع له ما لم يجتمع لنبيّ من قبله من الصفات العملية، فلنحدّد هل كان يتحرّك من خلال صفة الرسول والداعية والمشرّع والحاكم، لأنَّ لكلّ واحدة من هذه الصفات أسلوباً يختلف عن أسلوب الآخر وحُكماً يختلف عن حُكمه...

تجارب النبيّ ﷺ وتجارب غيره

وقد يكون من بين القضايا التي يجب أن ندرسها في التجربة الإسلامية الأولى هي التفرقة بين تجارب النبيّ بالذات التي مارسها بنفسه، أو أقرّ عليها غيره، وبين تجارب غيره من المسلمين في عهده، وبعد وفاته، لأنَّ

التجربة النبوية معصومة عن الخطأ، لا سيّما في مجال الدعوة، بينما لا مجال للقول بعصمة تجارب غيره ما لم تكن مقرونة بموافقته وإقراره (إلاَّ في أئمّة أهل البيت ،عليّ وأولاده الأحد عشر الذين ثبتت عصمتهم بصريح القرآن الكريم)..

على ضوء ما تقدّم، لا بُدَّ من عرض هذه التجارب على المبادئ الإسلامية العامّة، وممارسة عملية الاجتهاد فيها، لنستطيع اعتبارها تجربة إسلامية رائدة للحركات الإسلامية الأخرى.. وإلاَّ فإنَّ اجتهاد أصحاب هذه التجربة قد لا يكون حجّة علينا، ولا يكون مسلَّم الحجية عند جميع المسلمين.

دراسة أبطال التاريخ الإسلاميّ

وربّما كان من الإخلاص لهذه الدراسة، أن نترك الطريقة التي اعتمدناها في دراستنا لأبطال التاريخ الإسلاميّ من حيث التأكيد على الجانب الذاتي، واعتبار الجوانب الرسالية مجرّد صفات ذاتية ترفع من مستوى البطولة فيه... الأمر الذي قد يؤدّي إلى قبول أيّ حديث ـ مهما كان ضعيفاً ـ إذا كان متعلّقاً بجانب من جوانب العظمة الشخصية في حياته، حتى ولو كان على حساب القيم الإسلامية، كما نراه في الأبحاث التي انكبّت على دراسة السيرة لكثير من أبطال هذا التاريخ من الأئمّة والصحابة وغيرهم، فينسبون إليهم بطولات لا أساس لها، وفضائل وكرامات لا مبرّر لها، استناداً إلى أحاديث ضعيفة يرويها الكاذبون والوضّاعون والغُلاة ممّن لا يخافون الله فيما يَرْوُون وفيما يحدِّثون، ربّما كان دافعهم إلى ذلك عقدة نفسية أو ثمناً بخساً يبيعون به دينهم وضميرهم. وينقل الباحثون والدارسون والمترجمون ذلك كلّه.. لأنَّهم يريدون أن يحقّقوا زهواً بالعظمة

والقداسة فيمن يحبّون أو ينتمون إليهم ولو على حساب السيرة والحقيقة والتاريخ والعقيدة، ويعتذرون عن ذلك بأنَّه ليست أحاديث الحلال والحرام حتى يدقّق فيها المدقّقون، أو يرفضها الذين لا يقبلون إلاَّ ما كان خاضعاً لميزان الجرح والتعديل في علم الحديث أو الرجال.

ولكنَّ هذا العذر غير مقبول لدى الذين يشعرون بأنَّ من مسؤولية المسلمين أن يحافظوا على مقياس الحقّ في الأشياء في كلّ المجالات، سواء في جانب الحكم أو المفهوم أو الموقف، فلا يسمحون للزَّيف أن ينفذ إلى شيء من ذلك، لأنَّ الصورة الإسلامية لا تكتمل إلاَّ من خلال استكمال كلّ الجوانب العامة والخاصّة.. وليست القضية كما يزعم هؤلاء بأنَّها لا تشكّل خطراً على الإسلام.. بل ربَّما كانت الخطورة فيها بشكل أكبر وأشدّ، لأنَّ الارتباط بالأشخاص من خلال هذه القيم المفتعلة الموضوعة، يوجب ارتباطاً بكلّ ما يفكرون به أو يعملونه أو يقولونه، ولأنَّ افتعال القيم يفسح المجال لولادة تقييم منحرف ينعكس على طريقة الحكم والأوضاع والأشخاص، ما يوجب الإساءة إلى بعض الذين يفقدون هذه الصفات وإعطاء الذين يجدونها أكثر ممّا يستحقّون. ولذلك نعتقد أنَّه لو تمّ حذف كثير من هذه البطولات أو الفضائل الوهمية التي أضيفت إلى تاريخ هؤلاء بدون حساب، واقتصروا على الأمور الحقيقية منها، لكان في ذلك كفاية للأبطال الحقيقيين، فإنَّ الحقيقة تكفي صاحبها من دون حاجة إلى زيادة أو افتعال.

إنَّنا نريد أن نتخلّص من ذلك ليكون ارتباطنا بالرسالة طريقاً للارتباط بالأشخاص الرساليين، وتقديسنا لمعناها سبيلاً لتقديس الأشخاص الذين تعيش تلك المعاني في نفوسهم، لتظلّ الرسالة قاعدة رئيسية للانتماء

وللمشاعر وتحديد العلاقات في بدايتها ونهايتها.

أمّا الطريق إلى الوصول إلى ذلك، فهو التركيز على الرسالة في دراسة تاريخ أبطال الإسلام، لتكون الدراسة سبيلاً إلى معرفة تأثير الرسالة على حياتهم وسلوكهم وقيمته ومقداره، وأثرهم في حركتها وقوّتها وتطوّرها، ما يجعل مفتاح الدخول إلى حياة الشخص رسالته وليس العكس...

رابعاً

مع المؤرّخين في قصّة المبعث

ليست صلتنا بقضية «المبعث النبوي» صلة ذكرى نعيشها فتستوقفنا قليلاً ثمّ لا تلبث أن يلفّها الصمت في غمار النسيان، وإنّما هي صلة العقيدة بمولدها، والرسالة بمنطلقها، والإنسان بانطلاقة كيانه وبداية مجده.

إنّها الحدث الذي هزَّ كيان الإنسانية، بعد أن غفا مدّةً من الزمن، وفتح كلَّ جانبٍ من جوانب الحياة على الحقّ والخير والجمال، وانطلق بالإنسان إلى حياةٍ مُثلى يسودها العدل والأمن، بينما تنفجر أعماقها بالفكر النيّر والروحية الخلاّقة المبدِعة، في عملية خصب وعطاء. وهي ـ بعد ذلك ـ قضية الحياة الكبرى التي تنطلق لتبلغ بنا شاطئ الأمن والسلامة.

تلك هي قصّة المبعث كما نتمثّلها في أعماقنا، وكما يعيها الفكر الناقد الذي يلائم بين البداية والنهاية، فلا يتصوّر البداية إلا بالعظمة التي تسير بها النهاية، لا سيّما إذا كانت البداية بداية نبوة ورسالة، تستهدف إعداد إنسانٍ ما لحمل فكرة السماء على الأرض، ولتبديل القيم الجاهلية بقيم إسلاميةٍ جديدة، لتهزّ الضمير الإنسانيّ في عملية تجديد وإبداع.

لا بدّ لهذه البداية من أن تكون رائعةً في جوّها وتفاصيلها، ولا بدّ لهذا الإنسان من أن يكون عظيماً في وعيه وتفكيره وقوّته، لأن قضيّة النبوّة

تختلف عن أيّة قضية أخرى من حيث طبيعة المرسِل والرسول والرسالة.

أما أن تكون تلك البداية مسرحاً لحركات بهلوانية وتفصيلات مسرحية، أو أن تكون تفاصيلها أشبه بتفاصيل قصّة تمثيلية يُراد منها خلق جوٍّ من الرعب في نفوس الجمهور.. فهذا ما لا نستطيع أن نصدّقه بالنسبة إلى قضيّة عادية، فكيف بقضية الحياة الكبرى.

والآن، ماذا يقول التاريخ في قضيّة المبعث وماذا يصوّر؟ إننا لن نتدخّل في تفكير القارئ فنعلّق على هذه القصة التاريخية، وإنما نعرضها أولاً ـ كما وردت في تاريخنا القديم ـ ليحتفظ بذوقه وتفكيره.

مشهد مضطّرب

جاء في الدرّ المنثور للسيوطي «أخرج عبد الرزاق وأحمد وعبد بن حميد والبخاري ومسلم وابن جرير وابن الأنباري في المصاحف وابن مردويه والبيهقي من طريق ابن شهاب عن عروة بن الزبير عن عائشة أم المؤمنين أنّها قالت: أوّل ما بدأ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبِّبَ إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء، فيتحنّث فيه ـ وهو التعبّد في الليالي ذوات العدد ـ قبل أن ينـزع إلى أهله، ويتزوّد لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزوّد لمثلها، حتى فجأه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال: إقرأ. قال: فقلت، ما أنا بقارىء. قال: فأخذني فغطّاني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: **﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾** [العلق:١ـ٤] فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف بها فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد فقال: زمّلوني زمّلوني؛

فزمّلوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة وأخبرها الخبر: لقد خشيت على نفسي، فقالت خديجة، كلا والله ما يخزيك الله أبداً؛ إنّك لتصل الرحم، وتحمل الكلّ، وتكسب المعدوم، وتُقري الضيف، وتُعين على نوائب الحقّ. فانطلقت به خديجة حتى أتت ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة، وكان أمرأً قد تنصَّر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عَمي، فقالت له خديجة: يا بن عم، إسمع من ابن أخيك، فقال له ورقة: ما ترى يا بن أخي؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى. فقال له ورقة: هذا والله الناموس الذي أُنزل على موسى، ليتني أكون فيها جذعاً، يا ليتني أكون فيها حيّاً إذ يخرجك قومك. فقال رسول الله ﷺ: أوَمخرجيّ هم؟ قال: نعم. لم يأتِ رجل بمثل ما جئت به إلا عُودِيَ، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزّراً».

هذه إحدى الصّور التي رُوِيَت في قصّة مولد البعثة. وأنت إذا تأمّلت فيها، فلن تجد أمامك الجوّ الذي يسوده الهدوء والطمأنينة والوداعة التي تنسجم مع طبيعة القضية التي يناط بالنبيّ ﷺ أمر القيام بها والدعوة إليها، وإنما تجد بدلاً من ذلك جوّاً يسوده الرعب والخوف والترويع، كأن الغرض منه بثّ الرعب والخوف في قلب النبي ﷺ وإظهار القوّة والرهبة أمامه من قبل الملك.

ولن تجد في الوقت نفسه النبي الذي يثق بنفسه، ويعي ما حوله، ويفكّر في ما رأى ـ وقد رأى حقّاً كما تقول الرواية ـ وإنّما ترى أمامك الإنسان الخائف الوجل الذي يرجف فؤاده، ويخفق قلبه، ويخشى على نفسه أن يكون عرض له عارض من مسٍّ، لولا أن تثبّته خديجة بكلامها ـ ولسنا

ندرك مناسبة ذلك الكلام، لقول النبي إنّه يخشى على نفسه، كأنّ تلك الأعمال تمنع من هذا العارض، أو أنّها تثق بالله وعدم خذلانه لعبده الذي يعمل برضاه أكثر من ثقة النبي ﷺ به، وهكذا يتمثّل لنا الرسول ﷺ ـ في هذه الرواية ـ في موقف الحائر الذي لا يدري ماذا يصنع، وماذا يُفعل به، فتقوده خديجة إلى «ورقة» الذي فرضته القصّة نصرانياً يكتب الإنجيل بالعبرانية، فلا يلبث بعد سماعه كلام النبيّ ﷺ أن يجزم له بأنّه نبيٌّ، كأنّه يدري بتفاصيل البعثة قبل ذلك، وكأنّ التفاصيل مذكورة في الكتب المقدّسة السابقة، لا مجرّد الإشارة إلى نبوّة النبيّ ﷺ وصفاته، ثم لا نعرف معنى قوله (وإن يدركني يومك..) بعد أن كان يومه في ذلك الوقت نفسه.

والواقع أنّنا لا نعقل أن يبعث الله النبيّ ﷺ، وهو أفضل أنبيائه، بأفضل رسالاته، ثم يحوجه إلى أن يُثبِت نبوّته لنفسه ـ لا للآخرين ـ بواسطة خديجة أو ورقة، من دون أن يظهر له البرهان الواضح من قبله تعالى شأنه.

غرابة الموقف

ولن يقف بك المؤرّخون عند هذا اللّون من القصّة، وإنّما يعرضونها لك بلون آخر يزيدك دهشة، كما يزيد الموقف غرابةً وإثارةً للفضول. يروي ابن مردويه عن عائشة «أن رسول الله ﷺ اعتكف هو وخديجة شهراً، فوافق ذلك رمضان، فخرج رسول الله ﷺ وسمع السلام عليكم، قالت: فظننت أنّه فجأة الجن، فقال: أبشروا فإنّ السلام خير، ثم رأى يوماً آخر بجبريل على الشمس له جناح بالمشرق وجناح بالمغرب، قال:

فَهِبْتُ منه، فانطلق يريد أهله، فإذا هو جبريل بينه وبين الباب، قال: «فكلّمني حتّى أنست منه، ثم وعدني موعداً فجئت لموعده، واحتبس عليّ جبريل، فلمّا أراد أن يرجع إذا به وبميكائيل، فهبط جبريل إلى الأرض وميكائيل بين السماء والأرض، فأخذني جبريل فصلقني لحلاوة القفا، وشقّ عن بطني، فأخرج منه ما شاء الله، ثم غسله في طست من ذهب، ثم عاد فيه، ثم كفأني كما يُكفأ الإناء، ثم ختم في ظهري حتى وجدت مسّ الخاتم، ثم قال لي: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ ولم أقرأ كتاباً قطّ، فأخذ بحلقي حتى أجهشت بالبكاء، ثم قال لي: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ إلى قوله تعالى ﴿مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾، قال: فما نسيت شيئاً بعده، ثم وزنني جبريل برجل فوازنته، ثم وزنني بآخر فوازنته، ثم وزنني بمائة، فقال ميكائيل: تبعته أمّته وربّ الكعبة، ثم جئت إلى منزلي، فلم يلقني حجر ولا شجر إلا قال: يا رسول الله، حتّى دخلت على خديجة فقالت السلام عليك يا رسول الله».

هذا هو اللّون الآخر يعرضه لك المؤرخون لقصّة مولد الرسالة، وهو يختلف عن اللّون الأول بالطريقة التي ابتدأ النبي بها أمره، فقد كان السلام أول ما بدأ به الملك، وهو تمهيد جميل للتعارف، وليأمن النبي ﷺ جانب جبريل فيستطيع أن يأتي به إلى موعده حيث أجرى له تلك العملية الجراحية، فأخرج من بطنه ما شاء الله ما لا نعرف كنهه، كأنّ النبوة تتوقّف على عملية جراحية تطهّر الجسد من بعض الأشياء التي لا تتناسب ومقام النبوّة، أو لا تتّفق مع بعض مقتضياتها، ولا نعرف ما هو السبب لاستخدام طريقة العنف حتى يكشف عن ظهره ليختم عليه، بدلاً من هذه الطريقة التي اتّبعها مع النبي ليقرأ حتى أجهش بالبكاء؟

وتأتي في النهاية عملية الوزن والمكيال، فلا ندري ما معناه، وهل أن القضية كانت قضية اختبار لمدى نجاح النبيّ في دعوته، واتّباع أمّته له.. كأنهما لا يدريان عن ذلك شيئاً إلا إذا بلغ النبيّ وزناً مخصوصاً، حتى إذا بلغه صاح ميكائيل فرحاً «تبعته أمّته وربّ الكعبة» كأنّ الأمر مفاجأة طيّبة له.

صورة اللاّمعقول

ويمضي المؤرّخون في قصصهم، ويعرضون لوناً آخر من ألوان اختبار خديجة للنبوة، لتعطي النبيّ رأيها فيما إذا كان نبيّاً، ليعمل بعد ذلك على أساسه. فقد روى ابن الأثير في كامله الرواية الأولى المتقدّمة (ج٢ ص٤١)، وزاد فيه: «وقالت خديجة لرسول الله في ما تثبّته في ما أكرمه الله به من نبوّته: يا بن عم أتستطيع أن تخبرني بصاحبك هذا الذي يأتيك إذا جاءك. قال: نعم، فجاءه جبريل فأعلمها. فقالت: قم فاجلس على فخذي اليسرى، فقام فجلس عليها، فقالت: هل تراه؟ قال: نعم. قالت: فتحوّل فاقعد على فخذي اليمنى، فجلس عليها، فقالت: هل تراه؟ قال: نعم، فتحسّرت، فألقت خمارها ورسول الله في حجرها، ثم قالت: هل تراه؟ قال: لا. قالت: يا بن عم أن اثبت وأبشر، فوالله إنّه ملك وما هو بشيطان». ورواه الطبريّ في تاريخه وفي الاستيعاب أيضاً.

إن هذا اللّون يمثّل لنا النبيّ ﷺ في دور الرجل الساذج، الذي لا يعرف ماذا يصنع، ولذا فهو يستسلم لخديجة لتدّله على الدرب الذي يتعيّن عليه سلوكه، كأنها تعلم من دلائل الوحي وعلائم النبوّة وطبائع الملائكة وعاداتهم ما لا يعلم، ولذا بادرت إلى إخبار النبي ﷺ بأنّ ما يأتيه ملك وليس بشيطان،

لأنّه اختفى عندما حسرت عن رأسها، لأن الملائكة لا تحضر عند كشف المرأة رأسها كما تقول الرواية...

محاكمة التاريخ بدقّة

ولن يقف الأمر بنا عند هذا الحدّ في معرفة أوجُه الاختراع في هذه القصص، فهناك رواية أخرى تناقض هذه الرواية التي تثبت أن سورة (إقرأ) هي أوّل ما أُنزل، فقد روى البخاري في تفسير سورة المدّثر عن أبي سلمة قال: سألت جابر بن عبد الله: أيّ القرآن أُنزل أوّل؟ فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ [المدّثر: ١]، فقلت: أنبئت أنّه ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق:١] فقال لا أخبرك إلا بما قال رسول الله ﷺ، قال صلّى عليه وآله وسلّم: كنت في حراء، فلما قضيت جواري هبطت فاستبطنت الوادي، فنوديت أمامي وخلفي وعن يميني وشمالي، فإذا هو جالس على عرش بين السماء والأرض، فأتيت خديجة فقلت دثّروني وصبّوا عليّ ماءً بارداً، وأنزل: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ [المدثر:١ـ٣]. وفي رواية ـ كما في مجمع البيان ـ فحييتُ منه فرقاً حتى هويت إلى الأرض، فجئت إلى أهلي فقلت زمّلوني، فصَبُّوا عليّ ماءً بارداً فنزل ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾.

وما يدرينا، لعلّ هذه الرواية كسابقتها في الاختراع. ونكتفي بنقل كلام الشيخ الطبرسي في مجمع البيان تعليقاً عليها، إذ قال ـ بعد أن نقلها ـ «وفي هذا ما فيه، لأنّ الله تعالى لا يُوحي إلى الرسول إلا بالبراهين النيّرة والآيات البيّنة الدالّة على أنّ ما يوحي إليه إنّما هو من الله تعالى فلا يحتاج إلى شيء سواه ولا يفزع ولا يفرق».

تلك هي الألوان التي يرويها المؤرّخون لقصّة مولد البعثة، وقد عرضناها

عليك، لتعرف كيف غزا الارتباك والوضع والاختراع تاريخنا الإسلامي، وكيف يلزمنا الوقوف طويلاً عند ما ينقله من أحاديث وقضايا قبل أن نصدّق منها حرفاً واحداً، ومحاكمة تاريخنا محاكمة دقيقة، لنستطيع جلاء مقوّماتنا التاريخية بوضوح واتّزان.

الفهرس



و إضاءة المستقبل

الفقيه المجدِّد المرجع
السيّد محمد حسين
فضل الله (رض)

بطاقة تعريف

محمد السيّد طاهر الياسري الحسيني

- مواليد ١٩٦٣ النجف/العراق.
- المشرف العام على حوزة المرتضى ــ دمشق.
- مدير عام مركز إبن أدريس الحلّي للدّراسات الفقهية.
- إجازة في الحقوق.
- درس العلوم الإسلامية في حوزة قم.
- يمارس الكتابة و التأليف و التدريس.

صدر له عدّة مؤلّفات:

- مطارحات قرآنية
- مقاتل الأمويّين (دار البلاغ- بيروت ١٩٩٠)
- معجم المصطلحات الأصولية (دار المعارف ــ بيروت ١٩٩٤)
- فقه الشركة (دار الملاك ــ بيروت)
- فقه الإجارة (دار الملاك ــ بيروت)
- ثبوت الهلال طبقاً لقول الفلكي (دار الملاك- بيروت)
- هوامش نقدية (دار المعارف ــ بيروت)
- السيد محمد حسين فضل الله مفسّراً (دار الملاك ــ بيروت)
- صناعة الأدلّة (دار الملاك ــ بيروت)
- الاجتهاد و الحياة (مركز الغدير ــ بيروت)
- المنهج الفقهي عند الشهيد الصدر (دار الهادي ــ بيروت)
- الإمام محمد باقر الصدر ــ دراسة في سيرته و منهجه (دار الفرات ــ بيروت)
- محمد باقر الصدر.. فكر خلّاق (دار المحجّة البيضاء ــ بيروت)
- الدليل الفقهي (مركز ابن إدريس الحلّي ــ العراق)
- فقهاء و مناهج (دار المحجّة البيضاء ــ لبنان)
- الفقه في جنوب لبنان (دار المحجّة البيضاء – لبنان)
- الرؤى الفكرية للسيد فضل الله (رض)
- له عشرات المقالات والأبحاث في شتّى الدراسات الفقهية و الأصولية و القرآنية و المفاهيم العامّة منشورة في دوريات مهمّة.

